﴿اللطائف الاصبهانية والمنن التوفيقية﴾

﴿فى رحلة﴾

﴿الحاج بابا الاصبهانى داخل الممالك الفارسية﴾

﴿ترجمت بقلم﴾

(حضرة محمد افندى لطفى تلغرافجى المعية السنية)

للحاج بابا رحـــلة * فيها بدائـــع للادب

كانت بزاوية الخمـو * ل من اللغات لها حجب

فجـــلوتها للناظريـــ * ـن بحسن ألفاظ العرب

فأتت تهادى كالعرو * س تميس فى حلى الذهب

فاغنم أخىّ وصالها * كى ما تنال [illegible]

﴿الجزء الاول﴾

﴿الطبعة الاولى﴾

(بالمطبعة الخيرية بجمالية مصر المحمية)

﴿سنة ١٣٠٨ هجريه﴾

(الموافقة سنة ١٨٩١ افرنكيه)

(ماشاء الله كان)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد والانبياء والمرسلين أجمعين *(أما بعد)* فيقول الراجي عفو ربه الكريم محمد لطفي بن ابراهيم انى لما انتهيت من ترجمة كتاب تحفة المريد فى زواج أوردت بفريد وزها بعد الطبع نشره حتى عم البلاد بطيب نشره لما احتوى عليه من الفكاهات الغزلية واللطائف الادبية قد عثرت الآن عند من كنت أثق بوطيد محبته على كتاب فتصفحته فاذا هو آت من غرائب السياحة بالعجب العجاب بل نزهة لأولى الالباب وروضة ثمرقية معجبة للطلاب جمع من لطائف الاخبار ما يحير الالباب فكنت كلما انتهيت من باب رأيت الذى يليه أعجب منه فى الاغراب فانبعث قلبي لكشف دره المكنون واستخراج مافى كنوزه من جواهر الآداب والفنون لارفع عنه القناع وان كنت فى هذه الصناعة قصير الباع ورأيت ان أبذل فيه جهد الاستطاعة وأنقله من اللغة

الانكليزية

الانكليزية الى لغتنا البراعة لتتحلى عرائسه من الآداب بتاج من الزبرجد مهداة الى الكوكبين النيرين والبرنسين الفخيمين سلالتي المجد والسودد (البرنس عباس وشقيقه البرنس محمد) أدام الله مجدهما وأقام على المشترى سعدهما متمتعين بوجود سماء المجد وبحر الجود وغرة الدهر عزيز مصر المليك الاكرم والخديوي الاعظم من حاز كل فضل على التحقيق ولي نعمتنا أفندينا (محمد توفيق)

ياأهل مصر انني ناصح * فاستمعوا نصحا كنظم الجمان
بلدتكم قد أصبحت جنة * في عصر توفيق المفدى المصان
اذ نحن في ظل المليك الذي * تشملنا منه النوايا الحسان
ومازال يولي العدل من فضله * حتى تبدى قطرنا في أمان
وكم زها للعلم من روضة * للمجتني منها قطوف دوان
ان قصر النيل فلا تيأسوا * يغني أبي العباس خصب الزمان

أدام الله دولته واجلاله وخلد الى الابد ذكره وحفظ أنجاله وآله ماطلعت ورعت الغزاله فشمرت اذ ذاك عن ساعد الجد وأخذت أشرع في ترجمته وتنقيحه بحزم أسد وعزم أشد ولكنني أقول متأسفا انه قد عارضني في اثناء الترجمة صاحبه فنظر لي شذرا واختطفه مني قسرا فعجبت وما عجبي من منعه كتابا مطبوعا قد انتشر في عالم الوجود بأعجب من اعتقاده باستحالة وجوده وجعله في حيز المفقود فعاودت استعارته منه وتلطفت جهدي وطالما توسطت اليه باخص أصحابه فما كان يجدي فلما يئست من احياء ميت وداده وعلمت ان نجم المشترى أقرب من استجلاب مودة فؤاده عملت كل حيلة في احضار الكتاب فعاونني أحد الاصحاب المسمى المسيو اسكندر بيانكردي حتى أرشدني على رجل من كبار تجار وأعيان الانكليز القاطن ببلندره المدعو المستر جون برزمر

فكانبته على انه لم يرنى ولم أره ولحت اليه بشاحة صاحبى به على ومذ تحقق انها بلية اهتم بتحصيله وأرسله لى هدية فحمدت الله وشكرت هذا المفضال على حسن مسعاه وماغرسه فى قلبى من الجميل الذى لا أنساه ثم عرضته على صاحب العزة والسعادة والمجد وسلالة الشرف والسيادة رئيسنا الهمام الصادق المحرز قصب الفضل السابق (مصطفى بيك صادق) فشجعنى وقوانى على العمل فشكرته واستبشرت بحسن مستقبل الامل وسأشرع فى ترجمته وتعريبه وأبذل الجهد فى توضيحه وتقريبه وبما ان فيه من المعانى الرقاق ما يفوق الدر فى الاتساق فرمت أن أحليها بالاشعار وأجلوها عروسا للنظار فقد تكرم على حضرة الماهر الاديب والشاعر المتفنن اللبيب زميلى اللغوى الفاضل أحمد أفندى كامل بنسج بردها ونسق عقدها وعلى الله حصول المأمول فاقول

﴿الفصل الاول﴾

(فى منشأ الحاج بابا وتربيته)

حدث الحاج بابا عن نفسه فقال ان والدى المدعو كربلى حسن كان أصبهانى المنشأ وكان من أشهر الحلاقين بها لمهارته فى هذه الصناعة وانه لما بلغ من العمر السبع عشرة سنة تأهل بابنة شماع بجواره كانه الاان هذا الزواج كان منغصا لمعيشته لانه لم يعقب منها نسلا فلذلك هجرها وغض طرفه عنها ولم يمل اليها الا قليلا ولما اكتسب مالا عظيما من اتقان صنعته وتوفر أدواتها واشتهاره بين التجار ونال مالا يحصى من الثروة والاقتدار ومالم ينله أحد من أبناء حرفته فى تلك الاعصار فبعد ان مكث مع زوجته عشرين سنة وهو يكلمها كالذى اعتراه من النوم سنة تزوج بامرأة أخرى خطبها من أبيها الذى كان من أشهر صيارف

زمانه وتساهل فى تزويجها اياه بالنسبة لكونه كان يحلق له طول هذه المدة بمهارة وصناعة تحصل بهما على هذه البضاعة وبعد ان دخل بها أتته الافكار من كل جانب بالاهوال وكل أمر مشيب وذكرته ما يحصل من زوجته الاولى من النزاع والغيرة عند كشف ماوراء القناع فتشاور فيما يجريه نحو ذلك مع نسيبه الجديد لاخماد نار الغيرة حتى تصبح كبارد الحديد فاستقر رأيه أن يتوجه بها للحج فى هذه السنة لزيارة قبر سيدنا الحسين فى كربلاء وبذا يتخلص من تنغيصها وينجو من كيدها فاطاع الامر وجهز نفسه وأخذ زوجته الجديدة معه تاركا القديمة فى منزله بدون ان يوقفها على خبر أو تلحظ أدنى اشارة من هذا الاثر فحملت بى ووضعتنى أثناء الطريق فكنت لهما ثالث رفيق

وكان اسم والدى المشهور قبل سفره حسن المزين ولما ان تشرف بزيارة القبر الشريف الذى فى كربلاء فبالنسبة الى محبة والدتنا لنا سمتنا بالحاج وقد أطلق أيضا على هذا اللقب مدة حياتى وهو السبب فى منحى الشرف السامى بدون استحقاق لندرة اطلاقه على أى انسان الا على الذين أدوا الحج الشريف الى بيت الله الحرام وقبر النبى عليه الصلاة والسلام وكان والدى أناب عنه فى دكانه أكبر صبيانه مدة غيابه ومذ حضر أقام فى صنعته بهمة ونشاط زائد لانه كان يحترف بصنعته أثناء السياحة حتى اكتسب اسم (مسلم غيور) اذ كان ذلك داعيا لجذب قلوب الاعيان والتجار اليه أكثر من قبل وأما أنا فقد رأيت ان فى عزم والدى أن يجعل مستقبل تربيتى قاصرة على صنعة الحلاقة وانى لا أتحصل على شئ من المعارف سوى بعض أشياء دينية تختص بالعبادة والصلاة فلولا ما تداركنى الله به من تسخير أحد فضلاء ذلك العصر بارشادى لبقيت مغفلا من كل المعارف وذلك ان الفاضل السالف الذكر كان يتردد الى والدى يحلق له

مرة فى كل أسبوع وكان من دأبه اظهار رغبته وميله لتعليم الاولاد بخلوص نية ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى فطلبنى منه فقبل والدى وأوصاه بالالتفات نحوى فانجز الفقيه وعده ووفا بعهده وعلمنى القراءة والكتابة ومازلت أعلو درجات النجاح تحت لوائه طالبا للفلاح لا أخرج من كمينه حتى انه فى مدة يسيرة صرت أفسر القرآن وأشرح معانيه وأكتب خطا جميلا وبعد خروجى من مكتبى كنت أتوجه يوميا بعد خلاص الدرس الى دكان والدى حيث فيها تعلمت أول حرفتى حتى اذا اضطره الحال يأذن لى بالمساعدة معه رغبة فى تمرينى على هذه الصناعة بحلق رؤس المكارية والجمالة الذين كانوا من أول الامر يدفعون لى أجرة عظيمة لما كانوا يرونه من الراحة وسرعة يدى

ولما بلغت سن الستة عشر سنة كان يشق على الوقوف على حالتى وهل أتممت صنعتى أومازلت صبيا قابلا للتعليم لانه بخلاف ما تعلمته من حلاقة الرأس وتنظيف الآذان وقص اللحية ومساواتها اكتسبت الشهرة التامة فى اتقانى وظائف الحمام حيث لا يوجد خلافى له معرفة تامة بالدلك والتكبيس المختلف أجناسه كالى تعلمته فى الهند أوكشمير أو بلاد الترك وصنعة خصوصية أيضا لا يعرفها أحد فى طقطقة المفاصل ورنة أصوات كفوفى على بعضها وكذا شكرا لاستاذى الفقيه فانه علمنى الاشعار والقصائد الكافية التى بها عكسنى احياء وتزيين المحاورة بين الاصحاب بواسطة ابراز بعض اقتباسات مستخرجة من مؤلفات سيدى حافظ وخلافه حتى ان هذا الفن الذى كان يخرج من فى بصوت رقيق صيرنى محترما وأعظم رفيق عند جميع أولئك الذين كانت رؤسهم وأعضاؤهم فى قبضة يدى وبالاختصار فانى أقول الحق عن نفسى ان الحاج بابا هو الرجل وحيد زمنه وفريد عصره بين الناس أصحاب الذوق والرقة والانبساط كما قيل فيه

لا تحقرن

لا تحقرن الدهر حاف نباهة * ولو انه يعزى لا يسر محترف
فالحاج بابا وهو حلاق غدا * من صغره بالجد قد حاز الشرف
كالدر ما بين الجواهر قد رقى * جيد الغوانى بعد أبيات الصدف

ولمناسبة ان دكان والدى كانت بالقرب من الخان الملوكى وهو أعظم محل فى المدينة تتردد عليه الناس من كل فج فكانت ملجأ للاجانب والسكان من تجار وأعيان وعلى انى ما كنت أنتفع منهم سوى أجرة الحلاقة المعتادة فانهم لازالوا يزدحمون بدكانه بالنظر لتسليتهم بما يجدونه من مجابتى وفصاحتى وعذوبة ألفاظى التى أطرب منها السامعين واشرح بها قلوب المتفاكهين

بنى ان البر شئ هين * وجه طليق وكلام لين

هذا وفى يوم من الايام حدث ان أحد التجار الذين كانوا يأتون الى الدكان وهو تاجر بغدادى اشتد ميله نحوى وكان على الدوام يلح ويشدد على بالاصغاء اليه أكثر من التفاتى لمصالح والدى الخبير بكل أمر ثم أراد أن يكلمنى باللغة التركية ولمعرفتى بعضا منها كنت أخاطبه بها قليلا فلما علم ما أنا عليه من المعارف ابتدأ يهيج أفكارى ويدهش حواسى باوصاف جملة مدن مختلفة جميلة المنظر بهيجة الرونق ساح فيها حتى اشتاقت نفسى للسياحة وكان التاجر اذ ذاك محتاجا لكاتب يضبط حسابه ويدبر أشغاله وبما رآه منى من الدراية فى صنعة الحلاقة وفن الكتابة قدم لى عرضا وافرا للدخول فى خدمته فلذلك قبلت منه لتكرار طلبه وشدة رغبته ووقتها أخبرت والدى بهذا العزم فلما سمع منى ذلك غضب غضبا شديدا واجتهد فى منعى عن هذا المشروع الذى ما له الاخطار وتحملى تقلبات الزمان فاريته ما فى ذلك من عظيم الفائدة فلما سمع ما قدمه لى التاجر من المرتب الجسيم العائد عليه بالمنفعة خطر بفكره انه لابد ان يأتى وقت يستحيل فيه انه رادنى

بمفردى فاذن لى فى السفر ودعا لى بالبركة وأعطانى صندوق أمواس وودعنى وعلامات الحزن ظاهرة على وجهه ولكنه كان مخفيا له

أخفيت عنه الحزن جهدى رأفة * منى عليه ورحمة لفؤادى
كى لا أراه آسفا فيزيدنى * حزنا طريفا فوق حزن تلادى

وقد اشتد على والدتى الاسف والحزن حين بلغها خبرى وتلبست بالخوف العظيم والجزع لان الشفيق بسوء الظن مولع وبالنسبة لما كنت أمنيها به واسكن خاطرها مما أبثه لديها من رجاء مستقبل سعادتى بهذه الرحلة فما كان ذلك ينتج منه أدنى تسكين لخاطرها أو تلطيف لغضبها الان العجم لا يعتقدون نجاح حالة مبدؤها خدمة رجل سنى وصعبت عليها هذه الحاله ولكن لما لم تتمكن من ابطال هذا العزم فلمحبتها الاموية أعطتنى صندوقا ملآنا من البقسماط وعلبة كبيرة داخلها مرهم من المراهم ذات القيمة وقالت انه دواء لشفائك اذا لا سمح الله حصل جبر فى عظامك سيما من الآلام العصبية

ولما أردت تقبيل يدها عند الوداع قام بها من الشفقة ما أوجبها ان تمسكنى بكلتى يديها فلم استطع ان ألفت بوجهى الى باب المنزل ولم أتخلص منها الا بصعوبة زائدة وهى ترجو عودتى سالما غير مصدقة بنجاتى فى هذه السياحة التى تشاءمت منها ثم ودعتها وهى باكية العين شاكية غراب البين

فلاندبن عليك جهدى دائما * ولاهجرن الاهل والاصحابا
كيف التصبر بعد بعدك انه * قد غال عقلى والفؤاد أذابا
فارقتنى فأرقت لا تبعد فكم * بلقاك قد لذ المنام وطابا

الفصل الثانى

(ابتداء سياحات الحاج بابا ومقابلته مع التركمان وأخذه أسيرا)

فعزم

فعزم عثمان آغا وهو سيدى التاجر على الرحيل الى مدينة مشهد لجلب جلود غنم بخارى ثم يتوجه بها الى اسلامبول ليبيعها هنالك وكانت هيئته قصير القامة غليظ الجسم ذا أنف اسفنجية كبيرة وأما أطواره فكان رجلا مسلما صالحا للغاية متمسكا بالديانة وأداء الفروض ولم أره يوما ما يتأخر عن خلع جواربه مهما بلغت درجة البرد اتماما لفرائض الوضوء ولهذا يكره الطوائف التابعة للامام على كرم الله وجهه كراهة تامة وكنت أشاهد فيه هذه الحالة مدة اقامته فى بلاد العجم وله ميل زائد الى التكسب ولا ينام مالم يكن فى أمان من وضع دراهمه فى محل لا يخشى منه الا انه مع هذا كله لا يتساهل فى لذة نفسه فكان يكثر من شرب الدخان والطعام الدسم ويتعاطى النبيذ خفية مع انه كان ينذر ويهدد بالتلف والهلاك الاخروى الذين يراهم منهمكين فى شربه جهارا فهو كما قيل

يحرم فيكم الصهباء صبحا * ويشربها على عمد مساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى * فمن جهتين لا جهة أساء

وبعد أن أمر القافلة بالتجمع فى فصل الربيع أخذ يجهز نفسه للرحيل فاشترى بغلة قوية مرهونة خاصة لركوبه وقدم لى حصانا أركب عليه ولم يكن خاصا بى بل كان عليه المكليان (وهو نوع من شبكات الدخان يشبه الشيشة الهندى) وقلايته وزمزمية جلد وفحم وزيادة على ذلك خرجى أيضا وكان معنا عبد أسود يطبخ لنا ويفرش السجاجيد ويزل الاثقال ويحملها على البغال ولما يركب كان يبسط رحله على البغل لما عليه من جملة الادوات والسجاجيد وآلات المطبخ والبغل الثالث عليه صندوقا السفر داخلهما خزينة سيدى وكافة الاشياء الضرورية وجميع ما يلزمنا ومن شدة حرص سيدى عثمان أغا قبل قيامنا بيوم خاط فى حشو لبدته التى تحت عمامته الثقيلة خمسين دينارا بدون ان يعلم بها أحد سوانا

والقصد من ذلك صرفها عند حصول حوادث تطرأ عليه على حين غفلة وأما باقى النقدية المخصوصة لمشترواته التجارية فمخيطة فى أكياس جلد أبيض صغيرة وموضوعة فى وسط الصناديق محفظا عليها اما القافلة التى تجهزت للسفر فتحتوى على خمسمائة حصان ومائتى جمل وأغلبها محمل بالتجارة لشمال العجم ويصحبها نحو المائة والخمسين رجلا بين تجار وخدم ومرشدين للقافلة وبخلاف ذلك استصحب هذه القافلة شرذمة قليلة من الحجاج قاصدين زيارة قبر الامام رضا فى مدينة مشهد وكانوا يصفون هذا الموكب بالتقوى والطهارة وكل من يصحبه يتبارك به ويعتبرون ان أربابه لهم المقام الاعظم وذلك بالنسبة لعزمهم الممدوح لزيارة تلك الجهة كما يفعلون بالناس الذين يحجون

ولما استعدوا للرحيل أخذ كل انسان يسلح نفسه اما سيدى الذى كان بمجرد سماعه صوت بندقية يميل برأسه ويصفر لونه عند رؤيته سيفا مسلولا ما أدرى الا وظهر امامى متقلدا بقرابانة طويلة معلقة بالعرض على وسط ظهره وسيف منحنى فى جنبه وزوج طبنجات كبار نافذ من منطقته واما أمامه فاغلبه مغلول بعلب الخراطيش وآلاتها وأوعية البارود ومدكات البنادق وخلافها كما غناه الهمزانى بقوله

توشحت أبا الفتح * بهذا السيف مختالا
فما تصنع بالسيف * اذا لم تك قتالا

وكنت أنا بالمثل متسلحا من الرأس الى القدم وزيادة عما يحمله سيدى كنت متزينا بحربة عظيمة وأما العبد الاسود فمعه سيف بنصف نصل وبندقية بدون زناد

ثم قمنا فى طلعة النهار من جهة شمال أصبهان بدلالة چاويشية الحجاج وقد أعلنونا بالقيام بواسطة أصوات عالية والضرب على طبلهم النحاس وفى

أقرب وقت تصاحبنا بمن كانوا معنا من السياحين اذا لجميع متسلحون ومع كل هذه الاستعدادات الحربية أظهروا البعضهم علامات الهدوء والاطمئنان بجملة التواضع والخضوع فسررت من هذه الهيئة اللطيفة الا أنه ما كان يمكنني الرماحة والقفز بحصاني خوفا من غضب سيدي الذي كان بعض الاحيان لما يرانى أفعل ذلك يصيح نحوى بنغمة مغضبة ويأمرني بالسكون قائلا ان الحيوان لا يحمل السفرية بأسرها اذا أتعبته بهذه الافعال الصعبة التي لا تتأتى الا من رجال حربية أما أنا فصرت محبوبا لدى عموم القافلة وحلقت لكثيرين ثاني يوم الرحيل وأما سيدى فاني لا أقدر أن أصف مقدار ماسليته وسروره الزائد منى بمجانستى له فانه بعد حصول التعب الشديد له ونزوله من فوق بغلته كنت أستعمل له صنعة الاستحمام لازالة خذل أعضائه بتكبيس جميع جسمه وتدليكه بيدى

هذا ومازلنا سائرين بدون أن يعيقنا عائق أو يسوقنا سائق حتى وصلنا مدينة طهران وأقمنا بها عشرة أيام لراحة البغال وازدياد عددنا بالذين يرغبون في السفر معنا من تلك الجهة

اما الخطر الذي سيحصل لنا فهو من قبيلة يقال لها التركمان وهى التى كانت مع ملك العجم في احدى الحروب وقد اشتهرت بقطع الطريق وتقدم انها هجمت على قافلة ونهبتها وأخذت من بها أسيرا وهكذا كانت الاخبار المخيفة التى تنقل عن التركمان حتى ان كثيرا من فريقنا ومنهم سيدى بالاخص حصل لهم الفزع الاكبر من سفرهم الى مشهد ولكن الاموال العظيمة التى أخذها في ثمن الجلود المبيعة في اسلامبول أدخلته الغرور وألزمته جبرا عن أنفه بعدم الانزعاج قط لما هو عليه من الميل الشديد في حب طلب المكاسب حيث قيل

بقدر الكد تكتسب المعالی * ومن طلب العلا سهر اللیالی
ومن طلب العلا من غیر كد * أضاع العمر فی طلب المحال

وكان المعرّف فی اثناء هذه المدة یجمع الحجاج فی طهران وما یجاورها لانتظار حضور قافلتنا فلما وصلنا تلك الجهة أخبرنا انه جهز فرقة عظیمة للسفر معنا وأكد لنا انها تقویة لنا وأوصانا بوجوب الترحیب بها اتّقاء الخطر الذی سیصادفنا عن قریب وكان هذا المعرف رجلا مشهورا بمعرفة الطریق ما بین طهران ومشهد ولذا اكتسب الصیت بقطعه غیر مرة رأس تركمانی حینما یصادفه فی طریقه ویری من هیئته انه جسور شدید البطش لطول قامته وعرض كتفیه وغباشة وجهه المحترق من حرارة الشمس ومتزین بالشعر المسترسل من رأسه علی عارضیه بهیئة اللحیة ولابس درع حدید وعلی رأسه خودة بها جدائل مفتولة من الحریر تهف علی أكتافه وبجنبه سیف مقوس وبمنطقته طبنجات وعلی ظهره ترس وفی یده حربة طویلة كانه یطلب البراز والقتال وصار یتفاخر ببسالته ویتباهی بشجاعته ویتكلم باحتقار كلی عن التركمان وبذلك عزم سیدی ان یركن علی هذا الرجل فی سفره ویكون من افضاله تحت حراسته ثم استعدت القافلة للقیام بعد عید النیروز باسبوع وبعد ان أدوا صلاة الجمعة فی أكبر جامع فی طهران تحتفل فیه الناس ذلك الیوم توجهنا القریة الشاه عبد العظیم حیث تقوم منها عموم القوافل للسفر ولما وصلنا تلك القریة قمنا منها وكنا نمشی مراحل خفیفة حتی وصلنا البادة جافة قفرة وبها قرت أعیننا وهدأت قلوبنا وكنا كلما نصل لقریة أو نتقابل مع سیاحین تنادی الجاویشیة (بسم الله والصلاة علی النبی) بنغمات عالیة طنانة ویردفونها بالضرب بسیور جلد علی طبولهم الموضوعة داخل منحنیات سروجهم وكانت أغلب مسامرتنا عن التركمان

هذا وان كما أجمعنا آراءنا بانكسار العدو وكونه فى تلك الجهات الا اننا صرنا نسلى أنفسنا مؤملين انه مهما بلغ عدده لا شئ يوقف عدو ناضده لما نحن عليه من الاهبة والاستعداد ونحن ننادى (باسم الله الله أكبر) ونقول من هؤلاء الكلاب الذين يتجاسرون بالهجوم علينا ونحن الليوث الهوامر والاسود الكواسر والابطال الفوائك وصار كل منا يتفاخر ويعجب بقوته وشدة بأسه اما سيدى الذى بخلاف غيره فاسنانه تخبط ببعضها لهذا المحذور الخطر فمع افتخاره بما سيجرى به من الشجاعة عند الهجوم فكان كل من يسمع كلامه يظن انه لم يشتغل بشئ مدة حياته الا بمحاربة وقتل التركمان ولما رأى الجاويشان صوت سيدى يعلو على جميع الاصوات داخله الغيرة العظيمة حيث رآه يظهر نفسه انه أقوى وأشجع هذه القافلة ولم يعلم انه كما قيل

واذا ما خلا الجبان بارض * طلب الطعن وحده والنزالا

فصاح بصوت عال قائلا لا يلزم أحد منكم التكلم فى حق التركمان مالم تنظروهم ألم تعلموا انهم الملقبون بأ[؟] كلى السباع ولم يسلم أحد من ضرر قبضتهم وبوقتها صار يبرم فى شواربه جهة أذنيه وما كان سيدى يقول الصدق الا عند قوله ان الشاب مهما بلغ استعداد آلاته الحربية وكان عنده من القوة ما يضاهى قوة الفيل فانه يكاد ان يغرق من الخوف حبال الكعب اربا أى قطعا يوم الحرب (وهى الحبال التى تستعمل فى الشرق لصيانة الخيل) ولم ير سيدى عثمان أغا طريقة بها يأمن على نفسه من غوائل العدو فى حال الهجوم يتنعم بها عن رفقائه فى المسير أحسن من جعل نفسه من أتباع سيدنا عمر رضى الله عنه ولكى يشهر نفسه بهذا المذهب خرق قطعة شاش خضراء ولفها على عمامته وجعل نفسه على شكل أمير أو رسول من النبى الكريم عليه السلام على انه ما كان يفارق بغلته التى

يركبها ولم يتحد مع أحد أكثر من اتحاده معها
ولما قطعنا مدة أيام ونحن سائرون على هذه الحالة ما ندري الا والجاويش نادى بصوت مزعج يريد به أهمية التفاتنا اليه وقال اننا الآن واصلون لجهات التركمان الذين ينتظرون فيها القوافل وأوصانا بالسير جميعا حزبا واحدا وبالاستعداد للمقاومة العنيفة اذا حصل الهجوم علينا فأول حالة حربية حصلت لسيدى عثمان أغا عند سماعه هذا النداء هي كونه قفل بندقيته ورفع طبنجاته وأدخل سيفه في غمده ووضعها على احدى البغال الحاملين العفش وتوجع من حصول ألم بمعدته تاركا جميع اشغاله الحربية التي كان في أوائل الامر مشغولا بها وأدرج نفسه في عباته وظهر على وجهه المذلة والفزع وأخرج سبحته وصار يتلو عليها (سبحان الله واستغفر الله) وبهذه الحالة استعد لان يسلم نفسه للقضاء والقدر مع انه ظهر ان معظم اعتماده لحاماة نفسه على الجاويش الذى رأى منه عدم مبالاته بالاخطار لاسباب أخرى تحققت عنده وهي تحويطه بالطلاسم العديدة والتمائم المربوطة على ذراعيه وبذا تأكد له ان ذلك يبعد عنه سهام التركمان في أى وقت كان
ومازال الركب سائرا على هذا المنوال يتقدمه الجاويش بحسامه ذى النصلين وبرفقته فارسان من أشجع القافلة متباعدون عنها بمسافة قليلة بصفة غفراء لها وصاروا يظهرون قوتهم ويشجعون أنفسهم كل لحظة ويطلقون خيولهم في البطاح ويلعبون بالاسنة والرماح ويضربون بها الهواء وهم لا يبالون باعدا وبينما نحن على هذه الحالة اذ سمعنا طلق البنادق والرصاص وأصوا تا وحشية خرقت آذاننا فقلنا اشئ خفنا منه فوقعنا فيه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم
فعند ذلك وقف الجمهور تعبا وتأخرت الرجال والابطال والحيوانات عن

المسير

المسير وصاروا يضطربون كفرقة العصافير عندما يرون صقرا يهم عليها من بعيد فانضممنا من الخوف وصرنا كجسم واحد ونحن لا نجد مساعدا الى أن تحققنا هجوم طليعة من التركمان علينا و بوقتها اصفرلوننا واقشعر جسمنا وتغير حالنا والبعض ممن كان ذا قوة فر هاربا من جهة والبعض من جهة أخرى ومن ضمنهم سيدى عثمان أغا ولكن كيف السبيل وقد أحاط بنا الهلاك الوبيل وتسلط عليهم الخوف الشديد وانحلت قواهم وهم يصيحون و يتضرعون و يقولون يا الله يا الله يا أئمة الدين و يا محمد يا نبى الله و خاتم المرسلين راحت أرواحنا وفقدنا أموالنا وأحاق بنا العطب وعن قريب يدركنا الموت المبين فيا مغيث المغيثين أغثنا بحق الرسول الامين وفى أثناء ذلك نزلت المكارية الاحمال عن البغال فى هذه الفلاة وهربوا طالبين النجاة وكان العدو يتبعنا برمى السهام و يتساقط علينا كالغمام حتى لحقونا واحتاطوا بنا وأصبحنا غنيمة باردة بين أيديهم أما الجاويش الذى خلص نفسه من جملة معارك كهذه فعندما رأى العدو فرهاربا ولم نر ولم نسمع عنه شيأ هذا واستمر العدو ينهب العفش والاحمال وانتشر بجيشه العرمرم فى الخلاء وملأ بعدده وعدده الصحراء
فلما رأى سيدى ذلك الامر المهول ولم يجد له مفرا من المقدور واندرج ضمن بالى بضاعة لينتظر ما يكون من هذه الواقعة فاكتشفه أحد التركمان ذو الهيئة الهائلة والمنظر المخيف بحمله فى أول الامر على ظهره ضمن الطرود فلما أحس بشئ يتحرك على ظهره كالوسوسة طرحه على الارض فقام مرعوبا مفزوعا يتذلل اليه وهو لا يصدق بالنجاة بغاية الخضوع والمسكنة واجتهد فى ملاطفته وتهدئة خاطره وهو يستغيث بسيدنا عمر لاعتقادهم فيه و يسب الامام عليا كرم الله وجهه لكراهتهم له ولكن أين من يسمع ومن دوائه ينجع فازداد التركمانى الاصلابة

وقساوة وجرده من ملابسه ولم يترك عليه سوى عمامته لقبح لونها مع قيصه ولباسه وأخذ برنسه اللطيف وسرواله ولبسهما أمامه ولكون ملابسي رثة لا تستحق السلب سمح لي بعدم قلعها وبذلك استحوذت على صندوق أمواسي وهذه منة عظيمة بالنسبة لما حصل لسيدي

وعندما أتم التركمان السلب ابتدؤا يوزعون الاسرى على بعضهم وركب كل منا خلف خيال بعد ان عموا أعيننا لنضل عن الطريق ثم استمروا سائرين بنا طول النهار حتى أنزلونا ليلا في واد صغير واستراحوا فيه تلك الليلة وفي الصباح كشفوا أعيننا فوجدنا أنفسنا في مسالك لا يعرفها الا التركمان ثم قاموا وما زالوا سائرين في أودية معرقلة وجبال مقفرة حتى وصلنا الى خلاء فسيح قدر مد البصر كاننا في آخر حدود الكرة فوجدناه مزدحما بخيام سود من خيام العدو وأغنامهم ومواشيهم وهناك أنزلونا ننتظر ما يكون من أمرنا

﴿الفصل الثالث﴾

(الكلام على من وقع في أيديهم الحاج بابا وما ناله من السعادة والحظ الوافر بأسباب أمواسه)

أما التوزيع الذي حصل في الاسرى بين التركمان فكان في غاية الانتظام لان من حسن البخت كوني أنا وعثمان أغا وقعنا في يد سيد واحد وهو ذلك اللص الوحشي الذي ذكرته سابقا واسمه أصلان سلطان رئيس جردة عظيمة مبدؤها أول نزولنا من الجبل لغاية وصولنا للخلاء الفسيح وخيامه منصوبة على تخوم أخدود صغير ممتد وفي وسطه قناة ماء متفرعة لتناول مجاورة له وبه مراعي مخضرة مملوءة بالمواشي المنتشرة عليها بقدر ما يرى الانسان امارفقاؤنا المصابون معنا فحملوهم لجهة أبعد منا داخل هذه البلدة

ووزعوهم على قبائل التركمان المختلفة القاطنة فى هذا الاقليم
وبمجرد ظهورنا فى هذه البلدة قامت العساكر جميعها وأحاطت بنا من كل جانب للتفرج علينا اما قائدنا فاستقبلوه بالبشر والترحيب وهم يهللون باصوات عالية فرحا بقدومه منصورا وأما عنا فحدث ولا حرج عما حصل لنا من استقبال كلابهم فانها لما رأتنا هجمت نحونا عصبة كبيرة من كلاب الغنم وظلوا ينبحون علينا حتى كادوا يبتلعوننا حيث علموا اننا غرباء فقلت لا اله الا الله آهذا يقابل بالبشر والفرح ونحن نقابل بالذل والنبح بين هؤلاء الاجرام والقوم اللئام فلعل الله يأتينا بالفرج القريب ويأخذ بناصر الغريب والحمد لله على هذه المصيبة

يا نائم الليل فى جثمان يقظان * مابال عينيك لا تبكى بتهتان
ان الليالى لم تحسن الى أحد * الا أساءت له من بعد احسان
أما رأيت صروف الدهر مافعلت * بالهاشمى وبالفتح بن خاقان

وفى هذا الوقت حصل لسيدى نوع احترام بالنسبة لشاله الاخضر المعمم به ولكن بمجرد مارأته البانو (وهى الزوجة الاولى للقائد كما يلقبها التركمان) مالت نفسها اليه وأخذته بوقته فلم يبق على رأسه غير قاووقه المحشى الموضوع فيه دراهمه فاستحسنته احدى زوجاته الاخرى فأخذته قائلة انه ينفع لحشو رحلى الذى أضر بظهر جملى وحذفته بين الادوات فى أحد أركان الخيمة بعد ان اجتهد غاية الجهد فى عدم تسليمه لما فيه من الدراهم فلم يمكنه ذلك ثم ألبسوه بدلا عنه قاووقا من جلد الغنم كان يلبسه رجل من المصابين مثلنا كان مأسورا عندهم ومات حزينا محصورا
وبعد أن ألبسوه هذا القاووق عينوه فى وظيفة المتوفى وهى سوق الابل حال ارسالها للمرعى فى الجبال حيث لم يتوهموا منه الهروب لسمنه وثقل جسمه أما أنا فلم يسمح لى بالانتقال وترك الخيام وكانت وظيفتى

يومئذ نخض الاكياس الجلد الموضوع فيها اللبن لاخراج مافيه من الزبدة

ولشهرة انتصار التجريدة أعد القائدوليمة شائقة لعموم العسكر وأحضر قزانا كبيرا ملآنا من الارز المفلفل وعليه شاتان مشويتان ودعا الرجال من الخيام المحيطة به وبعض الذين حضروا الهجوم على قافلتنا واجتمعوا في خيمة واحدة وأما النساء فاجتمعن في خيمة أخرى وبعد ان قدموا الارز واللحم للرجال وشبعوا حملوه الى النساء فاكان مايكفيهن وأعطين الباقي لاولاد الرعاة فاكلوا ولم يتركوا غير العظام وفضلات الصحون فاحضروها لنأكلها مع الكلاب ولانتظاري هذه اللقمة مهما كانت بكل اشتياق لعدم أكلي من وقت أسري الى الآن مكثت عليه بكل شهوة فرأتني احدى النساء اللواتي أخذتها الشفقة على وأومأت لي فتوجهت نحوها فاخفتني خلف احدى الخيام وقدمت لي وعاء ملآنا من الارز وعليه قطعة من دهن الغنم كانت أعطته لها احدى زوجات القائد ورحمة لمصيبتي أهدته الي وأمرتني بتشجيع نفسي ثم عادت لمحلها بسرعة بدون أن تنتظر تشكراتي

هذا وقد مضى النهار على الرجال بالتدخين وسرد خطراتهم لبعضهم وعلى النساء بالغناء وضربهن على الطنبورة أما أنا وسيدي المسكين فكنا نتفكر ونتأمل في حالتنا الكئيبة ولكن علامات الالتفات التي حصلت لي الآن من تلك المرأة أهدأت روعي وأسكنت خاطري وأراقت فكري للشغل وعلمت من ذلك عدم اليأس كلية من تحسين مستقبل حالتي وما ذلك الابدء ارالدىوو الدنى

هى المقادير تجرى فى أعنتها * فاصبر فليس لها صبر على حال
يوما تريك خسيس الناس مرتفعا * الى السماء ويوما تخفض العالى

ثم اجتهدت بلاطائل فى تطييب خاطر صاحبى الذى لم يفتر عن البكاء لحظة على ما لحقه من هذه المصيبة العظمى ومازلت أسكن عقله وأسهل عليه أمره بقولى ان المسلم الحقيق ليس له ملجأ سوى كونه يسأل الله الرحمة ويلتجئ لكرمه وينتظر عفوه سبحانه وتعالى فى حال الحزن والمصيبة

تعزفكم لك من سلوة * تفرج عنك غليل الحزن

فوت النبى وقتل الوصى * وقتل الحسين وسم الحسن

فما كان منه الا وأجابنى بقوله مثلك الذى يقول (انه كريم الله كريم) لانك لم تفقد شيأ ولكن ها أنا نهبونى وضربونى وأصبحت لا أملك قتيلا ولا قطميرا ولا نقيرا ثم سكت ولم يتكلم وجميع أفكاره متحولة نحو خسارانه واعدام أمواله ومكث يحسب ماضاع منه من الاموال والبضائع ولم يترك بارة مما خسره فى هذه الوقعة الا وأدرجها ضمن الحسبة مع اننا كنا أيسنا من الحياة ولم يحمد الله على نجاة نفسه ولم يعلم ان رزية المال خير من رزية العيال فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

ثم أرسلوه ثانى يوم الى الجبال ومعه خمسون جملا للمرعى بعد ان أصدر اليه القائد التنبيهات والتهديدات المشددة بالمحاذرة والتحفظ عليها واذا ضاع منها جمل فثمنه يضاف على قيمة الفدية التى سيأخذها عليه فيما بعد فصعبت على حالته وكان وقتئذ شعره هائلا فأردت ان أحلق له لحيتى له وأجلسته على رحل جمل وأخذت جزء ماء من ينبوع بجانبى وأحضرت قطعة صابون ووضعتها داخل الماء وأخرجت أمواسى التى نجيت بها من نكبات المقدورات وحلقت له على رؤس الاشهاد فلما رآنا الناس على هذه الحالة أحاطوا بنا يتفرجون على هذه الحرفة العجيبة التى اتضح لى منها فائدة نتيجتها المستقبلى حيث كنت أحلق لمن يريد من الاهالى لان من عادة العجم ترك جلد باثنين خلف كل أذن كهيئة الضفيرة

وأما الاتراك فيربون لهم شوشة في منتصف الرأس فعند ذلك وصلت شهرتي للقائد فاحضرني وأمرني بحلق رأسه بلا توان فباشرت العمل وقد وجدت برأسه جملة علامات من ضربات السيوف وشعره به خشونة كشعر كلاب الغنم السالفة الذكر وقد تراآى لي انه متعود على قص شعره فقط وربما كان يقرطمه بالآلة التي كانوا يجرون بها غنمه حيث كانت أعظم لذة عنده بواسطة أحد حلاقي بلدته فلما رأى ما رأى من حسن صنعتي وغريب حلاقتي استشعر من تحت يدي بالنعيم وأظهر لي بطلاقة وجهه ممنونية لاحساسه بخفة رأسه وقال لي كأنك حلقت طبقتين من تحت جلدي ومكافأة لي أقسم انه لا يقبل مني فدية مهما بلغت قيمتها وسكن خاطري ولقبني بمزينه الخصوصي وهنا أترك للقارئ النبيه التنصيص على ما حصل لي من المسرة والانتعاش لهذه الحالة ثم جثيت على ركبتي لتقديم تشكراتي لسيدي الجديد على حسن تعطفاته نحوي الا اني كنت أثناء ذلك أتدبر في انتهاز فرصة الخلاص من مخالبهم وبالنسبة لتقربي للقائد ومحبته لي صرت أتدلل عليه شيأ فشيأ وأعلو بكلمتي وأمري عليه مع غاية المحافظة على نفسي ومازلت على هذه الحالة مدة أيام وأنا أتدبر في الطرق المستحسنة لهروبي وفكي من أسر العبودية الكريهة التي وقعت فيها نظر الما أكابده من المشقة والعناء وان كنت مستريحا بالنسبة لغيري

(الفصل الرابع)

(في حذاقة الحاج بابا واحتياله في خلاص دراهم سيده من أيدي التركمان والطريقة في حفظها)

ومن ضمن مقاصدي التي تراءت لي ان الواسطة في اسعافي ومساعدتي

على الهروب لا تكون الا بتدبير طريقة بها يمكن الحصول على دراهم سيدي المخيطة في حشو عمامته القديمة السابق حذفها في احد أركان خيمة النساء وان الحصول عليها لا يكون الا بالمهارة التامة بشرط عدم شبهة أو تهمة خلافي هذا وقد شاع ذكري واشتهر أمري بين عموم الناس والعساكر المجاورة لنا وصرت محبوبا وفقط لم يبق لي حيلة للدخول على البانو وباقي النسوة الا التشكر اليهن وابداء اشارات الممنونية التي بها اظهر لي صلة المحبة والمودة منهن الا انه لا يمكنني التطرف نحوهن لعدم لزومي عندهن بأي صفة من الصفات واغلب ما تعلمه الرجال والنساء ان حلاقي العجم لهم دراية تامة بالجراحة وذلك بخلاف ما يتقنونه من صناعة التكييس والتدليك في الحمامات خصوصا في الفصادة وخلع الاسنان وتجبير العظام فلتعطفات الالهية والمنن الربانية ارادت البانو الفصد في يوم من الايام فكان هذا غاية القصد وأرسلت وكيلها تستفهم مني عن مقدرتي في اجراء هذه العملية فقلت في سري كيف لا يمكنني وهذه هي الفرصة التي أتوصل بها الى وقوفي على موضع الامانة وأخذها بأي حالة ثم أسرعت مجيبا (نعم) وقد كنت استعددت باحضار مشرط من أعظم الاسلحة أفصد به بمهارة عجيبة بغاية الدقة والاحتراس فلما أخرجت العدة من جيبي أتى رجل من كبار القبيلة يدعي انه منجم يعرف علم الفلك وحسب الطالع وقال ان النجوم السيارة التي يصلح فيها الفصد لا تكون الا في الصباح فلما رأيت ذلك أكذوبة تركته في اثناء حديثه ولم أصغ اليه ودخلت خيمة النساء فوجدت البانو جالسة على سجادة مفروشة على الارض تنتظرني بلا صبر فلما تمثلت أمامها وسلمت عليها وجدتها امرأة لا تميل اليها الجوارح البشرية ولا تهيج منها الشهوات الذاتية سيما الشاب مثلي في يانع شبوبيته وعلى كلا الحالات كنت أكره النظر اليها لسببين أولهما شدة

مخافة جسمها وقبح شكلها الذى لاتهواه النفس وثانيهما خوفى من زوجها أصلان سلطان وبذلك ما كان يمكننى التملق ولا الميل اليها وان كانت تظهر محبتها نحوى خوفا من أن يكون عاقبة هذا الامر تخليص آذانى واعدام حياتى مع انها كانت تنظر الى نظرة رضا وتراعى فى مزاجى كانى سيدها كما أن النساء اللواتى يحببنها كن يعظمننى ويلتفتن الى كل الالتفات وجميعهن يتمنين ان أجس نبطهن لانظر أيتهن يلزمها الفصد وفى اثناء تجهيزى آلة الفصادة للبانو كنت أتطلع وأحول نظرى فى أركان الخيمة لعلى أقع على هذه الامانة التى أتمنى أخذها ولانتهاز الوقت الطويل للحصول على اتمام الفائدة بالنسبة لاغراضى فى هذه العملية خطر بفكرى اعادة تجربة نبطها مرة أخرى فأمسكت يدها وأنا أتأمل بشدة لنبطها واتماما للغاية اتى أريتها ان الدم معقد وفاسد ولا يصح اسالته على الارض بل يلزم جمعه فى وعاء لامتحانه عند القضاء حيث وقع نظرى على موضع الامانة فكان نتيجة قصدى ضجيج النساء وصياحهن مع بعضهن ولكن البانو لم توافقهن بل عدلت عن رأيهن ووافقت على آرائى وذلك لما فيه من الصعوبة الكبرى عما انه يشق على التركمان تعرض أى اناء للاتلاف بواسطة استعماله بشئ ينشأ منه تلف الاناء بالكلية وعلى ذلك صرن يناقض بعضهن بعضا وينكرن وجود أوعية بطرفهن وكل ما يرونه يستخسرن رميه واتلافه ويظهرن معزته عندهن هذا وبينما أردد أفكارى بالمجاسرة لتوجهى ذلك المحل الذى فيه القاووق فاذ كان من البانو الا وافتكرت وعاء قديما من الجلد وأمرت احدى النساء بالبحث عنه فلما أحضرته ونظرته قلت لها انه لا ينفع لما فيه من المناور الموجودة فى قاعه وهممت نحو باب الخيمة ورفعته امامى للكشف عليه ولاتمام مرغوبى شققته بالسكين ومازلت كذلك حتى خرقته نحو ستة خروق ثم أريتها

عدم نفعه وصاحت البانو على النساء أين القاووق القديم الذى كان يلبسه الامير المأسور فاجابتها الزوجة الثانية انه تعلق وأخذته لاحشى به رحل جلى فقالت لها بعنف شديد لا اله الا الله كيف يكون ملكك وتمنعينه عنى وأنت تعلمين انى سيدة هذا الحرم وكبيرة عليكن فالبتة من احضاره فاجابتها الزوجة الثانية مغضبة وقالت لا أحضره

فهاجت النساء لذلك وعلا الصياح والضجيج وعندها خشيت ان يأتى هذا الخبر لمسامع أصلان سلطان فيفصل المسئلة باستيلائه على الشئ الواقع عليه المشاجرة من أيدى المتشاجرتين

انما من حسن بختى وسعدى تداخل المنجم فى حل هذه المسئلة وأكد على الزوجة الثانية مشددا انه اذا استمر النزاع على هذا المنوال فحينئذ يهرب الدم الى رأس البانو فيؤذيها فلما سمعت كلام المنجم انجبرت على ابطال دعواها وسلمت لها القاووق فحمدت الله على ما أنعم على به من التسهيلات وعلى ذلك أجريت الاستعدادات اللازمة لفصدها فلما ان نظرت المشرط والوعاء من تحتها لنزول الدم فيه والاعين المتطلعة اليها من كل جانب المتشوقة لمشاهدة تلك العملية داخلها الفزع والخوف ولم تسمح لى باتمامها فلخوفى من ضياع الثمرة المقصودة نظرت اليها بعين الشفقة والحلم وجسست نبطها وقلت ان امتناعها مضر بها وضرورى من فصدها والامتثال لما قدر عليها الا ان كل انسان لا يمكنه يعلم المانع لقضاء المقدر عليه من ابتداء خلقته فعند ذلك لم تحاور بنى بشئ بل اتفق آراؤهن جميعهن انها اذا عارضت الاحكام الالهية فتكون بذلك ارتكبت الخطيئة والاولى امتثالها لقضاء الرحمن فمدت ذراعها عريانا وثبتت بقوة ظاهرية لضرب مشرطى فلما انقطع سيلان الدم وانتهت العملية أمرت بنقل الوعاء الذى به الدم الى محل بعيد عن المعسكر بمسافة قليلة وان لا يسمح لاحد قط ان

يصل اليه خلافى حتى أعلم اصابة المريض من خير أو شر الناتج من الفصد بهذا سيلانه وامتحانه بمفردى

ثم انى انتظرت حتى أظلم الليل ونامت جميع الناس وخرجت خارج المعسكر ومزقت بطانة القاووق وأخذت الخمسين دينارا بفرح وسرور لامزيد عليه وأخفيتها فى حفرة قريبة ثم حضرت الى حفرة أخرى أيضا فأخفيت فيها القاووق وعدت لمكانى فلما أصبح الصباح توجهت للبانو مظهرا الاسف وأخبرتها انى لما خرجت بالامس خشيت حصول شئ منها يضر بالدم فدفنته مع القاووق فى الارض فاقتنعت بكلامى وحصل لها الانبساط ومكافأة لى على خدمتى أرسلت لى صحنا صناعة يدها وعليه فوزى محشى بالارز والزبيب وبجانبه وعاء مملوء لبنا حامضا ومشر عليه الملح ثم ويلزمنى الاقرار بما طرأ بفكرى وقر عليه رأيى وهو انى لما استحوزت على الخمسين دينارا خطر ببالى سيدى القديم الذليل الذى نغصت عليه معيشته بالمقت فى الجبال برعى الجمال حال كونى فى درجة مناسبة من اللذة وعزمت فى نفسى وأنا متقلقل النية على رد هذا المبلغ اليه ومازلت أحاول الافكار وأتباحث رويدا فى الآراء المرار وأقول لولا شطارتى وحذاقتى اضاعت الدراهم كلية فمن ذا الذى حينئذ له الحق فى أخذها خلافى ولو فرضنا واستحوذ عليها صاحبها بالثانى فلا تفيده فائدة بالنظر لوظيفته التى هو بها الآن لان واحدا بين تسعة وتسعين شخصا لا يمكنه اعمال شئ ومن حيث انه لو أخذهم لابد من سلبهم منه بواسطة الناس الذين بصحبته فالاولى ابقاؤهم معى الآن بما انه موعود بفقدهم وأنا موعود بالاستيلاء عليهم وعلى ذلك انفصلت صعوبة هذه المسئلة ورأيت فى نفسى بهذه الادلة كأنى المالك الاصلى للخمسين دينارا ولا يجوز لاحد فى أى شريعة كانت ان يأخذها منى

وبعد انتهائي من هذه الورطة اجتهدت في ارسال نصف القوزي المشوي اليه الذي أهدى لي ليسد به رمقه ويرد جوعه فناديت أحد الرعاة وكان ذاهبا للجبل وأخبرته بتفاصيل المسئلة وعاهدته بتوصيله اليه فوعدني بعد أن أقسم لي انه لا يعبث به في الطريق بل يوصله له بأكمله فمع هذا كله ما زلت أشك في كلامه ولكن بعد نهومه هذا كرة الدنانير السابقة قلت لا يهدأ خاطري ما لم يشاركني رفيقي التعيس في اقتسام لذاتي وعلى ذلك سلمت للراعي نصف القوزي لتوصيله اليه ولكن يا ألف حسرة وخسارة ما حسبته وجدته فانه لم يستغرق هذا الشق لجهة النهر الذي في حدود المعسكر الا ورأيته يقطع فلذات من اللحم ويضعها في فمه ولا أشك في كونه أكله وخلصه قبل وصوله بل وتظف على عظامه من قبل أن يختفي عن بصري وتراأى لي عدم النجاح في اقتفاء أثره لطول المسافة التي قطعها ولم يفرج عن نفسي الا كوني التقطت حجرا من الارض ونشنت على رأسه وحذفته فلم يصل اليه ولا يتم مقصودي حتى أشفي غليلي فتركته وأنا كاظم الغيظ

﴿الفصل الخامس﴾

(صيرورة الحاج بابا لصاوحاميا لنفسه واغارته على وطنه)

أقول قد مضى الآن نحو السنة وأنا في أيدي التركمان وتحصلت في أثنائها على محبة سيدي وميله الي حتى آل أمره الى أن يشاورني في جميع مصالحه الخارجية بل وفي داخليته وكنت أنا الآخر ملازما ومصادقا له ومطيعا لجميع أوامره فلما رأى صداقتي وحسن سيري وعلم بذلك علم اليقين انه يركن الي في مهمات الامور المتعلقة بشؤنه مالت طبيعته الى أن يسمح لي بمرافقته في سياحته على قول التنزه الى بلاد العجم بقصد السلب فحالما بلغني هذا الخبر كدت أطير فرحا حيث بهذا الاذن فرصة عظيمة لهروبي منه بغاية

الراحة فانى طالما ترددت وكررت عليه بان يأذن لى فما كان يقبل منى حتى سمح الزمان وآن الاوان بمنتهى بغيتى ووصولى مغرز البلدتى على أنه ما كان يسمح الى هذه الساعة بالفسحة خلف المعسكر ولا بالتوجه خلف المراعى المحيطة به خوفا من الفرار مع انه ما كان يمكننى ذلك لانى كنت عادة أجهل الطرق التى داخل الصحراء العظيمة المالحة الفاصلة بيننا و بين بلاد العجم وعلمت أنى لو اجتهدت فى الفرار لا يفيدنى شيأ لجهلى وعدم استدراجى على هذه المسالك حيث اتضح ان كثيرا من الناس قبلى هربوا واغلبهم هلكوا والبعض عادوا الساداتهم فعاملوهم بشدة وعنف عن قبل وعلى ذلك ابتهجت سرور العلى انى ملكت الفرصة لمشاهدة الصحراء التى سمر منها وعزمت فى نفسى ان لم أتمكن من الهروب أثناء هذه التجريدة فلا يمنعنى شئ عند العودة عن الفرار بالنسبة لوقوفى على الطريق فى الرحيل

ولكون أغلب سياحات التركمان كانت فى فصل الربيع لوجود المزارع والمراعى فى الاراضى العالية لحيواناتها والغلال الناضجة فى الاراضى السهلة والداعى الاكبر أيضا تحققهم مقابلة القوافل فى هذا الفصل حتى يشنوا عليها الغارة بالنهب والسلب حال سفرهم فلقرب هذا الفصل دعا ذات يوم أصلان رؤساء قبيلته ورؤساء العشرات والمئات وكل من كان مشهورا بالشجاعة فى النهب وأبان لهم التفاصيل التى يقصد بها السياحة الى وسط بلاد العجم اذ كان قصدهم الوصول الى نفس أصبهان والدخول ليلا بعد نيام أهلها وهجوع من فيها فيسلبون الخان الذى يلتجئ اليه أعنى تجار المدينة وكان سيدى المذكور هو القائد لنا فى هذه الصحراء العظيمة لان الماسه وخبرته ومعرفته بالطرق كانت أحسن من أى انسان معاصر له ثم قال للمجالس حال انعقاده انه بالنظر لعدم معلومية أحد منكم بشوارع وأسواق مدينة أصبهان خلاف الحاج بابا فقد عينته دليلا لنا فى الطريق عند دخولنا المدينة

فلما سمعوا كلامه عارضت جملة ناس هذا الرأى وقالت أيها القائد كيف يكون ذلك فان من عدم التبصر الاعتماد على أجنبى حالة كونه وطنيا أى من نفس المدينة المراد سلبها وبوده الفرار فى هذه الدقيقة من هنا فكيف اذا وجد من يوصله الى بلدته وهو آمن مطمئن على نفسه فاتفقت الآراء أخيرا بعد حصول جملة مجادلات بانه لا بأس بان أكون الدليل لهم فى اصبهان بشرط أن يحتاط بى رجلان حتى اذا رأى لهما منى علامات الخيانة فبوقتها يقتلانى فى نفس البقعة

ولما انفض المجلس على ذلك أخذت التركمان فى استعداد خيولها وقد جهزت لى حصانا من أعظم الخيول المشهورة التى خرقت بندرة السبق دفعتين وتهيأت على شكل التركمان حيث لبست على رأسى طربوشا كبيرا من جلد الغنم وتسلحت بحسام وقوس ونشاب وحربة ثقيلة برأس ترفع وتوضع عليها عند اللزوم وكان مربوطا خلفى على ظهر الحصان كيس حنطة وحبال لعقل الحصان عند الوقوف وقرص من الخبز لطامى الخصوصى كانوا يخبزونه على ألواح صاج وتراه بعد الخبز فى سمك ورق الكرونة ومعى أيضا ستة بيضات آكلها عند الضرورة وشدة الجوع حال حصول مشقات أو مناوشات لا يمكن استعمال الخبز فيها وقد عودت نفسى على التخشن والتقشف من وقت ما أسرت الى هذه المدة ونومى على الارض وأى شئ أجده أجعله وسادة تحت رأسى وبذا فوجود فراش للنوم وعدم وجوده مستويان عندى وكانت رفقائى تشابهنى فى القوة والتخشن ومن الجائز انه كان عكسا فى حالة تعب أجسامنا الى آخر درجة أن نكون أكفاء لمقاومة أى أمة فى الدنيا

وأول شئ احترست عليه هو أخذ الخمسين دينارا من الحفرة وربطها جيدا فى حزامى ثم وعدت سيدى الاول الذى فى جسمه وتغير شكله من شدة

الحزن والغيظ انه لو أمكنتني الفرصة أبذل مجهودي بان أوصي أصحابه باطلاق سبيله فلما سمع كلامي تأوه وقال لا فكاك لي من هذا الذل الى الممات ولا أحد يسأل عني اما من جهة ابني فأود ما عليه هلاكي واستحوازه على أمتعتي وكذلك زوجتي أحب ما عليها أن تتزوج زوجا آخر وبذلك خاب أملي لحين انقضاء أجلي ولا يلزمني الاحاجة واحدة وهي أن تعمل معروفا وتسأل لي عن أغا ان جاود الشياه في اسلامبول فتأسفت على حالته وعدم حسن مقالته وتذكرت مصيبة من تلاهي في خزانة ماله ولم يتفكر في أمر أولاده عند شبوب النار بمكانه وقد قيل في حقه خطابا له

قبحت يا هذا ولقيت الردى * وجزيت بالخزلان والخسران
شبت بيتك ليلة نار لها * سعر حكى لون النجيع القاني
يا ويح قلبك والنواظران ترى * ولديك في النيران يحترقان
لما سعيت الى الخزينة مسرعا * للدرهم الفاني كما اللهفان
وتركت أمهما تدق بصدرها * وتفيض منها العين بالهملان
فجزيت من قبح الفعال جهنما * وحباهما بالحور والولدان
وكفاك أن قد صرت أقسى واحد * أمثولة في الخان والبلدان

فتركته وأنا أحاول الافكار عن الخمسين دينارا وأردد في ضميري هل ينبغي ارجاعها اليه أو الاحسن حفظها عندي ولو تكون برمته لانه لو أمكنني الهروب يلزمني قليل من الدراهم أستعين بها في الطريق وباي طريقة لا يمكن سيدي الخلاص من الاسر الا بعد اخلاتي

هذا ومازلت أقلب الافكار وأجوب موارد التذكار حتى قرر أي أخيرا بابقائها في منطقتي وبعد ان أخبر المنجم عن أحسن ساعة يستحب الرحيل فيها قمنا في أوائل الليل وكانت عصبتنا تشتمل على القائد العمومي لهذه التجريده وهو أصلان سلطان وعشرين فارسا وأنا من ضمنهم وكانت رفقاؤنا من

أعظم فرسان العساكر المجاورة لنا وجميعهم فوارس كاملو العدد وراكبون على أحسن الخيول المشهورة في السرعة وجودة الاصل المجلوبة من الخيول المشهورة داخلية آسيا وعندما ركبنا اعتقدت أن هيئتنا كهيئة طائفة السفهاء والاشرار وتصورت أننا ملكنا الصحراء لضجة الخيل فيها امامن جهتي فكنت أشعر من نفسي أن الطبيعة البشرية لا تخيل لي بان أكون فارسا ومع ذلك رأيت أن الاحسن ثباتي وتحفظي على هيئة الشجاعة والفروسية ظاهرا مادمت بهذه الحالة مثل الاشقيا الذين برفقتي فسلكت على هذا الاسلوب مظهرا القوة والبطش كي يعتقد سيدي ورفقائي انى فارس رستام (وهو اله الشجاعة والقوة قديما عند العجم كما هو مذكور في تاريخهم وفي شاهنامة العجم) و يعتقدوا أيضا انهم استحوذوا على فارس صرغام مثلي مع اني في حقيقة الامر كان حاصلا لي انزعاج و وجل شديد خصوصا كنت أتوقى اليوم الذي سيجري تجربتي فيه كانما عناني أبو العلاء بقوله

أسد علي وفي الحروب نعامة * فتخاء تنفر من صفير الصافر

وكنت أتعجب كل العجب من فطانة ومهارة القائد الذي كان يقودنا في المزارع والغابات المهولة المغطية الجبال التي على حدود كبشالك أمار وية المسالك الخطرة ومطالع الجبال الشامخة لسواح حديث السن مثلي فكان يرتعد منها جسمي و يضعف عزمي ولكن رفقائي لا يبالون بمثل هذا الخطر بل كانت عندهم سهلة العبور لا يشعرون بتعب ولا فتور لجودة خيلهم التي ربوها بحسب سيرهم وكنا لما نصعد فوق الجبل وندخل في سهول بلاد العجم الواسعة اتى اشتهر سيدي بمعرفتها وبمسالك قفارها وأوديتها فبمجرد ما يظهر له أي علم كان يعرفه في الحال ما كأنه الابحاري افرنكي خبير بمسافة الجهات التي ينظرها من بعد في البحر والاعجب من ذلك

ما اشتهر به من الفطانة والفراسة التي يستخرجها من العلامات وخطوات الحيوانات التي يجدها في الصحراء فنها يخبر عن جنس السواحين وعن بلادهم ومن أي الجهات آتين ولاي الجهات متوجهين وهل هم أعداء أو أحباء أو كانوا محملين أو فاضيين ومقدار عددهم التقريبي بكل دقة

ثم استمرينا بغاية التيقظ في المسير وكنا نستريح نهارا في الجهات المسكونة ونسير ليلا أما العلائق والمؤنة فصار تجديدها قبل دخولنا الصحراء المالحة من آخر معسكر من القبائل الرحالة وبعدها أخذنا في الرحيل مسرعين بالخيل مما نعهده فيها من الجودة والشدة في هذه البيداء والصحراء القفراء بعد أن قطعنا مائة وعشرين فرسخا (الفرسخ ثلاثة أميال ونصف جغرافي) وجدنا أنفسنا في ضواحي أصبهان حيث قد اقترب أوان حصاد ثمرة التعب وحان وقت تجربتي فكان قلبي يسقط تارة ويتزعزع أخرى كلما أسمع حالة الهجوم التي اتفق عليها أصحابي ألا وهي أن ندخل المدينة من جهات خالية الحرس أعرفها جيدا وفي منتصف الليل نسلك طريقا مستقيما للخان الملوكي حيث كنا متحققين من وجود تجار كثيرين يجتمعون فيه في هذا الفصل ومعهم النقود الجاهزة للمسواق وقد اتفقنا على أخذ جميع النقود التي نجدها ويقبض كل منا على تاجر بشرط أن نفر الى رحالنا بغاية السرعة قبل حصول انزعاج وصياح في المدينة فلما سمعت ذلك رأيت في نفسي أن هذه المسئلة قريبة الخطر ويحتمل عدم النجاح ونرجع بالخيبة والوبال فكان من رأيي عدم اجراء هذه العملية وعندها التفت نحوي سيدي وتفرس في وجهي وبالحال علم ما أنا عليه فقال لي يا حاجي افتح عينيك وارجع عما تفترى وأمل نحوي أذنيك واعلم أن هذا ليس لعب أطفال حتى نوقعنا في المذلة ولعار فلنكن أيدينا واحدة وآراؤنا لبعض معضدة فاني أقسم لك بحياة النبي صلى الله عليه وسلم ان لم تسلك حسب الاتفاق وتظهر منك

اختلاس أو نفاق لا بد أن أحرق أبالك بعد أن أذيقك العذاب وأرميكما غذاء للكلاب فقد فزنا منها سابقا بالغنائم والاموال فكيف لا ننجح الآن ونعود بالخسران

ثم أمرني بالركوب بجانبه وأمر شقيا أن يركب من الجانب الآخر وكلاهما انذارني بانه اذا حصل مني ميل أو أي حركة تدل على خيانتي فالا تمر لحظة حتى يسقياني كأس الممات ويدرجاني ضمن الغزوات فقلت يا سيدي سمعا وطاعة سترى ما يرضيك من القوة والشجاعة ومدحته قائلا

قل لليوث الخادره * وأولى النصال الباتره

وذوى الرماح العاسلا * ت اذا اهززن لغائره

اياكم والتركمان * هم الاسود الزائره

كم قد تجندل منهم * بطل شجاع فاقره

لما غدا مخاطرا * دارت عليه الدائره

ثم سرنا في مقدمة القوم ولوقوفي على مواقع أصبهان سلكت طريقا اخر با حولها ودخلنا في الشوارع المسكونة التي كانت في هذه الساعة من الناس خالية ومهجورة وبوصولنا المحل الواقعة اختبأنا في احدى المنازل الخربة التي بجوارها ولم يتردد أحد جهتها الا نادرا ونزلنا عن ظهور خيولنا ودققنا أوتادا في الارض وربطنا فيها الخيل بحبال الكعب وتركنا نفرين من رجالنا يحرسونها وبكل تحفظ عينا نقطة الاجتماع في معارة منفردة تبعد عن أصبهان نحو خمسة فراسخ وانها تكون محل التقهقر بحسب مقتضيات الاحوال فتوجهنا جميعا على الاقدام بدون صياح ولا كلام متجنبين الشوارع والاسواق التي أعلم أن فيها نقطا من العساكر المستحفظة وما زلنا ندخل من حارة الى أخرى حتى وصلنا لبوابة الخان وهي الجهة التي أعرفها نقطة نقطة بدون أن أراها حيث بجانبها دكان والدي فارقفت.

صاحبي بعيداعنها وأخذت حجرا وطرقت على بابها العلي انه مقفول بالكالون
وناديت البواب باسمه قائلا يا علي محمد (افتح افتح) لان القافلة حضرت
فقال وهو بين النوم واليقظة بدون أن يبدي أدنى حركة للفتح أي قافلة
فاجبته هذه القافلة الحاضرة من بغداد فقال كيف ذلك وهذه القافلة قد
حضرت من بغداد أمس هل تضحك على ذقني فلما لم أجد له حيلة على الفتح
وقد أوقعت نفسي في الشرك اجبرت أن أخاطبه باسمي وأجبته قائلا ما هذا
ان قولي لحقيقي وهذه قافلة حضرت مع الحاج بابا كوبلي حسن بن المزين
الذي سافر مع عثمان أغا التاجر البغدادي وقد أتيت اليك في هذه الساعة
لاخبرك بذلك وآخذ البشارة منك فاجاب يا هذا هل هو الحاجي الذي كان
يحلق لي جيدا وترك محله خاليا من مدة مديدة فان كان هو فاهلا وسهلا
بشرك الله بالخير يابني تأن حتى أفتح لك الباب يا أعز الاحباب ثم قام يفتح
الكالون ويرفع الترابيس وكانت وقتئذ تتقدم الجماعة نحو الباب مع الرئيس
فاكتشفنا أثناء دوران المفتاح في الكالون من الخروق انه رجل هرم
قصير وبيده فانوس حديد نوره زائد فتحققنا منه أن المحل غاص بالتجار
الكثيرين والامتعة المثمنة وبحال فتح الباب قبض أحدنا على البواب
وهدده بالسكوت وهجمنا جميعا دفعة واحدة وابتدأنا في السلب والنهب
ولاتقان رفقائي كيفيات الهجوم علموا جميع محلات النهب وبوقتها
استحوزوا على جميع الذهب والفضة التي وجدت
وكان أول عزمهم أن يأسروا رجلين أو ثلاثة من أغنى التجار الذين فديتهم
تكون ينبوعا لهم في جلب المال أحسن مما يغتنمونه حتى انهم قبل أن ينتشر
ويعلو الصياح ويعم الانزعاج قبضوا على ثلاثة رجال كانوا نائمين على
أنظف المراتب وعليهم أغطية من أحسن الشيلان وتحت رؤسهم
وسادات مطرزة بالديباج وبذا ظنوا أنهم يتحصلون على مبلغ جسيم منهم

فارتقوهم

فاوثقوهم كأفاو ربطوا أيديهم وأرجلهم على حسب عادتهم وحملوهم بالقوة لمحل وجود خيلهم وأركبوهم خلف ثلاثة منهم وتوجهوا بهم الى نقطة الرجعة حتى غابوا عن محل الواقعة

ولمعلوميتى بمخبآت الخان وغالب المحلات المقيم بها اغنى التجار وموضع النقود دخلت احدى الاودوهى الاودة التى كان مقيما فيها سيدى عثمان أغاسا بقاوقبضت على صندوق صغير تعود التجار وضع دراهمهم فيه وخرجت به ولتمام سرورى وجدت داخله كيسا ثقيلا فكبيت بعضه فى جيبى وحملت الباقى على قدر امكانى وبالنسبة للظلام لم أتمكن من معرفة الدراهم من أى معدن كانت

ولما آن انتهاء شغلنا حصل الهيجان والانزعاج فى المدينة حتى ان أغلب الناس الذين كانوا موجودين بالخان مثل خدامين وسياس وعربجية ومكارين عندما داخلهم الرعب هرعوا جميعا الى السطوح وحضر السكان المجاورون له طوائف على صياحهم ولم يعلموا حقيقة المسئلة تماما ثم أتى حاكم المستحفظين والضباط والعساكر وطلعوا فوق السطوح ولم يزيدوهم الاصياحا بقولهم (اضرب امسك اقتل) بدون أن يحصل أدنى شئ حقيقى لضبط العدو وصاروا يضربون بنادقهم فكان الرصاص يطلع فى الهواء ماكأنهم الاينظرون مسافة وصول النيشان لاى نقطة ولم يصب أحد مناو بالنسبة للظلام والهياج الكلى الحاصل اتفقنا على الفرار بما معنا بدون أن تحدث منا وقائع جنائية أوخلافها وفى أثناء هذه المشكلة كنت احدث نفسى بالنجاة من هذه العصبة المشؤمة التى صرت معدودا منها بان أختبئ فى احدى الزوايا لحين انصرافهم ولكن طرأ بفكرى انى اذا فعلت ذلك وبحثت فهيئة ملبوسى تدل على أنى من ضمنهم ومن قبل ان أوضح لهم حالتى وأخبرهم عنى وعن والدى أصير غنيمة باردة

وتسفل الاهالى دمائى ولا يقبلون منى هناء ولا عزاء وهذا ما حسبته مرارا وان كانت دكان والدى التى قضيت فيها أيام الهناء والسرور مجاورة لذلك الخان وقلت اذا قبضوا عليك باليد ماذا تفعل وأول شئ تفكرت فيه هو ملاحظة أصلان سلطان الذى هددنى بالقتل ان لم أسلك الاسلوب المتفقين عليه وأوفى بالعهود السالفة بيننا فامتنعت عن هذا الامر وسلمت أمرى لله

ولاظهر شجاعتى وقوتى امام سيدى وما أنا فيه من القوة أسرعت بالقبض على رجل أعجمى يريد الهجوم علينا وطرحته على الارض وصحت عليه قائلا ان لم تخضع لنا وتكن أسيرا تحت يدنا وتتبعنا والا قتلتك فلما سمع ذلك ارتعد واستغاث وهو يقول اطلقنى بحق الامام الحسين وحياة أبيك وبحق لحية سيدنا عمر وأنا مستغيث بك فأعتقنى لوجه الله فلما سمعت صوته لم أشك فى كون هذا صوت والدى لا محالة وبواسطة ضوء القنديل تحققت من وجهه جيدا فاذا (هو هو) وكان حضر للتحفظ على دكانه من السرقة التى لا تحتوى الا على ستة فوط وصندوق أمواس وصابونة وسجادة لاغير وحال ماعرفته تركت لحيته من يدى التى كنت قابضا عليها بقوة وبالنظر لحالة الاحترام التى تعودنا عليها نحن الاعاجم لوالدينا كان يجب على تقبيل يده ووقوفى امامه بكل خضوع ولكن حرصا على حياتى التى كانت تحت الخطر اذا حصل منى تهاون استمريت على المشاجرة والمشاحنة معه

ولا بين ميلى ونشوقى نحو أصلان سلطان أظهرت أنى أسخنته ضربا وفى الواقع كان ضربى فى سرج بغلة كانت بجانبه وفى أثناء ذلك سمعت والدى يخاطب نفسه بقوله آه وا أسفاه وامصيبتاه لو كان ولدى الحاج بابا هنا ما تحمل ما أكابده من هذه المشقات ولا ما اقاسيه من اهوال الممات

فثارت

فتأثرت من أقواله ومايظهره فحوى من حسراته وهو لا يعلم انى انا ولده ومضغة كبده ولولم أر الموت أمامى لاعتنقته اعتناق المحب للمحبوب فكيف بالوالد الودود ولكنى اجتهدت فى خلاصه من مخالب التركمان وقلت لهم باللغة التركية لافائدة لنا من هذا الرجل فانه حلاق لايملك شيأ وفى الحال تركته بدون اظهار أسف أو تكلف وغبت عن محل الواقعة مع مابقى وركبنا خيولنا وخرجنا خارج المدينة مسرعين الى نقطة الرجعة

﴿الفصل السادس﴾

((فى الكلام على الثلاثة الاسراء الذين أخذهم التركمان والغنيمة التى اكتسبوها من الخان))

(قال الحاج بابا) فلما وصلنا لمحل الرجعة التى تواعدنا فيه بالمقابلة نزلنا من فوق خيولنا وقعدنا نستريح حتى نجتمع جميعا ويذهب عنا تعب تلك الليلة وكان احدنا سرق قوزيا حال ركوبنا فذبحناه وقطعناه قطعا صغيرة للشىء ووضعناها على اسياخ وجمعنا يسيرا من القش على قدر ما أمكنا من روث بل البهائم وأوقدناه تحتها وبمجرد ماسخنت اختطفناها جميعا قبل أن تستوى وصرنا نبتلعها كالغيلان بكل توحش وشراهة وبعد انتهاء الاكل وتوزيع مابقى منه على الاسراء تداولنا على ان نبحث عن أصل وكيفية الاسراء وماهم عليه من المقدرة وكان الاول طويلا ورفيعا يبلغ من العمر نحو الخمسين سنة حاد النظر نحيف الوجه خفيف اللحية ولابسا لباسين من الحرير وشالا على كتفيه وكان الثانى رجلا قصيرا لقامة ملفوف الجسم متوسط السن دموى الوجه ولابسا قباء غامقا مزررا على صدره ويرى على هيئته انه أحد قضاة الشريعة وكان الثالث سمين الجسم غزير الشعر بشع المنظر يرى عليه القوة والبأس وهو الرجل الذى اعتنينا فى تكتيفه

وابناقه جيدا عن الآخرين بالنظر لما رأيناه منه من شدة المدافعة عن نفسه

فأحضرناهم أمامنا وسألناهم عن وظائفهم وحالة اقامتهم فتقدم الاول وهو الرجل الرفيع الذى يظهر عليه حالة الثروة كما ظهر للتركمان بناء على اخبار رئيسهم وبما انى كنت الوحيد فى العصبة فى معرفة اللغة الفارسية وقفت اترجم بينهما فسأله اصلان سلطان من أنت ومن تكون فانزعج الرجل وقال بصوت خفى أنا أنا ياسيدى أعرض لسيادتكم انى رجل فقير حقير لا اذكر فى جانب خدامتكم فقال وما شغلك فأجاب انى رجل شاعر فى خدمتكم ياسيدى ومابيدى شئ

فلما سمع احد التركمان المتوحشين لفظة (شاعر) صاح قائلا شاعر ماهذه اللفظة وما الفائدة منها فأجابه أصلان سلطان بحالة الغضب لا ينفع بشئ وان الشعراء أفقر الناس ويعيشون بما يتحيلون به على الغير من مدح وذم فمن الذى يدفع عنه الفدية ثم قال اصلان سلطان للشاعر اذا كنت فقيرا بهذه الحالة فكيف لبست هذه الملابس المثمنة وحضرت بها فراجعه الشاعر ان هذه الملابس من علامات الشرف أنعم بها على أمير شيراز حيث كنت عملت قصيدة مدحته فيها فلما قدمتها اليه جازانى بهذا الانعام فلما سمع منه ذلك أمر بتجريده منها واعطائه ملبوسا من جلد الغنم وذهب بعيدا عنه وأحضر الرجل القصير وسأله الرئيس عن وظيفته فاجابه انى قاض فقير لا أملك النقير فقال كيف تدعى الفقر والمسكنة وتنام على أنخر المفروشات فيا ولد الكلب ان لم تصدقنى بحالتك ورأيتك تكذب فى مقالتك لاعزل رأسك عن جثتك فى هذه الدقيقة فاعترف بما لك من الغنى والثروة فان القضاة جميعهم أغنياء لانهم يبيعون أنفسهم لمن لهم السلطة عليهم حبا فى جمع الدرهم والدينار فأجابه القاضى ياسيدى انى قاضى قرية

جالدون واتيت الى أصبهان حسب أمر محافظ المدينة لدفع أموال القرية التي أنا قاطن بها فاعترضه الرئيس وقال أين تلك الدراهم التي أحضرتها فقال القاضي ياسيدي قد أتيت لاعرض حالتي للمحافظ وأخبره ان الجراد أتلف محصولات السنة الماضية اتلافا كليا زيادة على قلة المياه لري الارض فقال واحد من العصبة ما يستحق هذا الرجل بعد هذا كله وما الفائدة منه فأجابه الرئيس ان هذا الرجل ذو قيمة عظيمة اذا كانت الفلاحون ترغب عودته وان لم يرغبوه فلا يساوي دينارا وعلى ذلك تحفظوا عليه ربما أن تكون فائدته لنا أعظم مما نحصل عليه من أحد التجار حالا ثم أحضروا الرجل الثالث أمامه فسأله أصلان سلطان كالمعتاد عن صنعته فقال متبلدا أنا رجل فراش فعند ذلك صاحت العصبة جميعها وقالت انه يكذب حاشا أن يكون فراشا وهذا يستحيل فقال أحدهم كيف يكون فراشا وينام على فراش نظيف فأجاب ليس هو فراشي ولكنه لسيدي وغت عليه لعدم وجوده تلك الليلة فصرخ الجميع بقولهم يكذب ليس بفراش ما هو الا تاجر وقالوا له ان لم تعترف بالصدق وتقر بانك تاجر لا بد من قتلك وما زالوا يلحون عليه وهو لا يتنازل عن كونه فراشا فلما لم يقر بانه تاجر تعصبوا عليه واثخنوه لكما بالكفوف والاقلام فلما زاد به الالم لم يسعه الا ان صاح وقال أنا تاجر لكي يتخلص من هذا العذاب ولكني حكمت في نفسي من هيئة هذا الرجل انه ليس بتاجر وانه فراش كما يدعي

ولما ثبت لاصحابي ما هو عليه وانهم لا يستفيدون منه أدنى فائدة وطلبت منهم خلاصه من أيديهم ففي الحال التفتوا نحوي واخوفوني بنحو الالف لعنة وبخوني وهددوني قائلين اذا كنت تريد الميل والشفقة على أهل بلدك سيكون لك نصيب معهم وتعود للامر ثانيا فالتزمت حين ذاك بالسكوت والصبر وتنحيت عن هذا الامر وتركت الاشقياء وشأنهم ولما

ثبت لهم أن مشروعهم في سرقة بني آدم كان سيئ الحظ لم يسروا من اجرآتهم وندموا على أخذهم الاسراء واختلفت الآراء بينهم فيما يجرونه نحو الثلاثة الاسراء الذين كان اسرهم كعدمه فالبعض قال نبقي القاضي لاخذ الفدية عليه ونستعبد الفراش وقد ظهر من الجميع انهم متفقون على قتل الشاعر فصعب على أمره ولم أقدر اعمال نفسي من بذل مجهودي في خلاصه من يدهم لانه ترا آى لي من هيئته انه رجل من كبار القوم وعلى معارف عظيمة ولابد وأن يكون من ذوي الثروة وان كان يدعي الفقر ولما ظهر لي ان الحالة زادت في الاشكال واقترب اعدام حياته قلت للقوم ما هذا الجنون الذي ترتكبون به الخطيئة أما تخافون الله في قتله بغير ذنب اما تعلمون ان قتل هذا الرجل أقبح من قتل الاوزة التي فيها بيضة من ذهب وأما تعلمون أيضا ان الشعراء يكونون أغنياء جدا أغلب الاوقات وفي امكانهم استمرار ثروتهم طول المدى لان غناهم في رؤسهم فاذا دلوا مافيها أصبحوا من ذوي الثروة أما تسمعون عن الملك الذي أعطى شاعرا مشهورا مثقالا من الذهب عن كل شطرة في القصيدة التي مدحه بها ألم يمكنه يعمل ذلك مع سلطاننا الحالي ولربما في يوم من الايام يكون شاعرا خصوصيا للملك وقال أحدهم اذا كانت الحالة هكذا فليقل لنا أبياتا ارتجالية واذا كان كل بيت لايساوي مثقالا فنقتله فصاحوا جميعا على الشاعر وقالوا له هيا أسرع عاجلا واسمعنا قصيدة هيا هيا وقد أظهروا له البشاشة والنجاة من العذاب وقالوا له ان لم تقل والاقطعنا لسانك ثم تركوه واتفق رأيهم أخيرا ان يحفظوا على الثلاثة الاسراء بدون ان يمسوهم بضرر وانه بعد ان نقتسم الغنيمة نرجع بالثاني الى سهول كبشالك فدعانا أصلان أمامه وكل واحد انجبر على ابراز ما سرقه فالبعض منهم جلب أكياسا من الذهب والبعض من الفضة ولم يقتصروا على ذلك بل

أحضروا أيضا شبكات ملبسة بالذهب من أفخامها وأباريق من الفضة وأكراك سمور من ذوات القيمة وشيلانا وجملة أشياء أخرى مختلفة الاجناس صار احضارها أمامنا ولما أتى دوري أخرجت كيسي الملآن من التومان (كل تومان يساوي أربعة عشر شيلنا) وكان اثقل الاكياس التي احضرت وبها كنت بت مددها زائدا عن جميع الاشقياء فعند ما رأوا الدراهم قالوا جميعا (ماشاء الله ماشاء الله) ياحاجي لقد صرت تركمانيا من الدوجة الاولى مع انه لايمكن أحد بان يفعل مثلك وخصوصا سيدي صاح عدحني باعلى صوته قائلا ياحاجي لقد صرت مثل ابني فاقسم لك بحياتي ورأس والدي انك فعلت أفعال الشجعان الابطال وسأزوجك باحدى جواري وتعيش معنا وننصب لك خيمة خصوصية ونعطيك عشرين رأسا من الغنم ونعمل لك الافراح والليالي الملاح بعد ان أدعو فيها عموم المعسكر فلما سمعت هذا الكلام لم أعبأ به وصرفته في عميق الافكار لان من عزمي الهروب في أول فرصة أتمكن منها بل كان مطمح انظاري في هذا الوقت وغاية التفاتي هو في تقسيم الغنيمة لانظر ماينوبني حيث تأملت ان ينالني نصيب عظيم منها

ولكن من سوء بختي ومن ضمن مصائبي الكبرى لم يصبني منها شئ ومكثت بدون طائل أتوقع عليهم وأترجاهم المرار في اعطائي نصيبي فما كانوا يسمعون مني شيأ وما أسمع منهم الاقولهم لي أخيرا (ياحاجي بابا اذا كنت تتلذذ بكلامه مرة أخرى نعزل رأسك عن جسمك) فالتزمت السكوت خوفا على فقد حياتي وسليت نفسي بالخمسين دينارا تعلق ونسكنت امري وقلت في سري ياولد اصبر لعل الله يأتيك بالفرج القريب

هذا ما كان من أمري وأما الاشقياء فمكثوا يتنازعون ويتشاجرون على نوائبهم التي كادت أن تكون عاقبة منتهاها سفك دماء بعضهم بعضا ولولا ان

رجلا منهم قال انه موجود من ضمن الاسرا قاض فلنحضره ليقض بيننا ويقسم علينا ذلك بوجه العدالة ولالزوم للمشاجرة فهو الفاصل بيننا فأحضروا القاضي المسكين بينهم وأجلسوه في وسطهم وصار يوزع السرقة لكل واحد ما يخصه بوجه العدل وكان من ضمنها دراهمه وأمتعته التي سلبوها منه وبعد ان فرغ من القسمة قام بدون أن يعطوه محصول القسمة عن كل مائة ما تستحقه كما هي العادة الجارية عند القضاة بل عاد للاسر كما كان في أول الامر وهو يهون على نفسه بقول القائل

لا تضيقن بالامور فقد تنكشف غماؤها بغير احتيال
ربما تكره النفوس من الامر له فرجة كحل العقال

((الفصل السابع))

((في الكلام على ما أظهره الحاج بابا مما ألم به من المشقات وتاريخ الشيخ عسكر الشاعر))

ولما انتهت مسئلة القسمة ارتددنا راجعين من الطريق الذي حضرنا منه ولكن كانت التجريدة بطيئة الحركة ليست كالاول بالنسبة للاسراء فانهم كانوا تارة يسيرون على الاقدام واخرى يركبون

وقد سليت نفسي أول وقوع نظري على الشاعر من هيئته الظاهرية بما انكب عليه من المصائب ولكونني كنت أتروى في بعض الامور رتخيل لي المحال وتصورت في فكري اني سأكون سببا في نجاة هذا الرجل العظيم من الضيق بما أجريه من التحيلات على اني لا اظهر أدنى ميل لجهته فاجتهدت في هذا المشروع ونجحت في تعيني محافظا عليه بدعوى اني أجبره على انشاء بعض أبيات شعرية وبالنسبة لكوننا كنا نتحدث مع بعضنا بلغتنا التي لا يعرفها أحد من العصبة فكنا نتكلم بما نريد بكل حرية

ولا خوف

فشرحت له حالتي وماجرى لي مع الاشقياء من أول الامر الى الانتهاء وأريته اني عازم على الهروب منهم وحققت له اني سأبذل جهدي فيما يعود عليه بالفائدة على قدر امكاني فلما سمع كلامي وصدق مقالي ظهر على وجهه في الحال علامات السرور وقابلني بلسان شكور حيثما كان ينتظر منهم الا سوء معاملته ولعله ماحصل بيننا من الصداقة والمحبة لم يتأخر عن اخباري عما جرى له وباحواله وكيفيته وبذلك تحقق لي ما كنت أتوهمه من انه رجل من ذوي الثروة والمعارف عندما أخبرني انه شاعر الديوان الملوكي ومتشرف برتبة (أمير الشعراء) وانه كان حاضرا من طريق شيراز (حيث أرسله الشاه في بعض أشغال هناك) الى طهران وفي نفس اليوم الذي وصل فيه الى أصبهان لم يتم الا بوقوعه في أيدي التركمان هذا وبعد ان سردت له ماحصل لي من المخاطرات وماقاسيته من الاهوال والمشقات فلكي أن نتسلى على مصائبنا في الصحراء القفراء سألته أن يشرح لي حاله من مبتداه الى منتهاه فاجابني عن سؤالي وقال ما يأتي

(قال الشاعر) لقد ولدت في مدينة (كرمان) واسمي عسكر ومكث والدي زمنا طويلا حاكما على هذه المدينة في زمن حكم الاغا محمد شاه وفي اثناء ولايته دسوا الدسايس ضده وقامت أعداؤه على ساق وقدم وهاجوا وماجوا في القاء الفتن القطيعة بقصد خلعه من محافظة المدينة فانتصر عليهم بمعونة الله وفاز بالظفر على أعدائه ولم ينالوا الا الخيبة والوبال

وكانت عيناه أكثر تعرضا للخطر ولكن لما كان عليه من العدل والاستقامة قد حفظهما الله سبحانه وتعالى ومن حسن سعده توفي بدون تعب على فراشه في حكم الشاه الحالي فسمح لي بوراثة متروكاته البالغ قدرها عشرة آلاف تومان وكنت في صغري مشهورا بالالتفات الدرومي حتى انه قبل بلوغي سن

الست عشرة سنة شاع أمري وانتشر ذكري بحسن خطي وقد حفظت كتاب الحافظ باكمله على ظهر قلبي واجتهدت من تلقاء نفسي في فن الشعر وانشاء القصائد اللطيفة وقد قيل عني بأني أحل الجفر وأفصل صعاب المشكلات وكنت من نفسي لا أجد مسئلة الا وأبحث فيها ولا علما الا وأغوص بحاره وقد أنشأت القصائد والابيات الغزلية في العاشقين الشهيرين ليلى والمجنون ولم أسمع يوما صياح البلبل الا وعرضت شكواه للورد وانما أذهب لا أتأخر عن انشاء الاشعار والتغني بها في المحافل وقد تصادف ذات مرة ان الملك في ذلك الوقت تجهز لمحاربة صادق خان اذ كان يدعي انه يستحق سرير الملك وكان الملك قاد الجيش بنفسه واستمر يحاربه حتى هزمه وانتصر عليه فلما بلغني نصرته عملت قصيدة مدحت بها الملك ومن ضمن ما قلته في وصف الحرب أن جعلت رستام (وهو اله الحرب) واقفا فوق ساحة القتال مظللا بالغمام فلما رأى رستام الملك متوسطا في المعمعة يقوي الابطال ويحوم كالاسد الريبال وبالاخطار غير مبال صاح مخاطبا لنفسه ان غيابي في هذا الزمان هو تمام حظي لاني لو تواجدت على الارض ما سلمت من طعنات هذا الملك المفضال الذي أراه قد فاق عني في الحرب والنزال

(قال الشاعر) وقد نلت أيضا الشكر الزائد عندما قلت ان صادق خان وعسا كره ما كان يلزمهم التقلب والعصيان ضد ملكنا فنعم ما حاق بهم من التزلزل والوبال والهوان ومر النكال فقد أطاح الملك منهم الرؤس وسقاهم من الموت أمر الكؤس وعندها أومأت بيدي على عمود أمر جلالته باقامته من جماجم الاعداء فلما بلغ الملك كلامي وعجيب تشبيهاتي وحسن نظامي انسر خاطره وغمرني بالانعام وأحسن علي باعظم شرف يناله الشاعر اذ أمر أن يحشى فمي بالذهب أمام جميع معيته في المجلس العالي وكان ذلك سببا في

تقدمي ونجاحي وأمر بتعييني ضمن معية جلالته لانشاء الاشعار عند القضاء فقدمت له هذه المدحة شكرا لما ناله من الشجاعة ونصرته على صادق خان

عجبا الفارس فرسنا وثباته * تتزلزل الاجبال من وثباته
في كفه رمح اذا ما هزها * خلع القلوب وتلك من روعاته
والقرن يحلف ان فاه لعظمه * فارفاين يكون من لهواته
يعلو كميتا او تجاريه الصبا * شهدت بان البرق من خطواته
فتح المعاقل والحصون مذللا * ملكا تظاهر في ثياب عداته
يدعى بصادق خان فهو مضلل * نهج الرشاد يسير في جهلاته
لازال يفتك جاهدا في جيشه * حتى بنى الاعلام من هاماته
ملك يجود لمعتفيه بالندى * فتخال ان البحر بعض هباته
لازال معتليا على أعدائه * بالنصر والاسعاد في غزواته
متمتعا في ملكه متحصنا * يجني اللطائف من رباجناته

ثم ولا ظهر ما أنا عليه من الغيرة والاجتهاد أعرضت للملك ان الفيردوزي الشهير الشاعر المتقدم أمر بان يحرر شاهنامه للشاه الذي كان في مدته وحيث ان مولانا الملك أحسن ملوك الفرس الذين تملكوا على العجم سابقا فاذا تحسن لدى مولاي بما أني عنده شاعر يأمرني بتحرير شاهنشاهنامه (تاريخ ملك الملوك) لانتشار شهرة عدله وأحكامه في جميع المملكة فلما سمع الملك مني ذلك سر سرورا زائدا وأمرني بتحريرها بكل ممنونية

وكان يريد أحد أعدائي الذين في المجلس العالي وهو الخزندار الاعظم ان يحدث على ضريبة اثني عشر ألف تومان بدعوى ان الملك أصدر ارادته في ذلك مع عدم علم جلالته بهذه الارادة لدفع ما ضرب على من الغرامة فحدث يوما من الايام اجتماع محفل عظيم وكان الناس يتذاكرون فيه

عما حصل من اكرام محمود شاه الغزناوى الى الفيردوزى الشاعر ومعاقاته من الضريبة واحسانه عليه بمثقال من الذهب عن كل بيت شعر قاله فى الشاهنامة فلما سمعت مقالتهم امتلأت فرحا حيث وجدت لى وجها للتكلم فى هذا الشان وكنت أود ان الملك يبلغه كلامى الذى ابتدرت به قائلا فى وسط المحفل (ان معاقاة جلالة ملكنا الحالى واحسانه مساويان لمحمود شاه لا بل أزيد وأعظم منه مهما جاوكرما واحسانا لان محمود شاه عافى الفيردوزى لانه كان متوظفا بوظيفة أول شاعر فى بلاد العجم وأما أنا فيما أنا فيه من الفقر والاحتياج والخضوع والمذلة التى أنا واقف بها للآن أمام جلالته فقد غمرنى مولاى بسابق انعاماته العديدة) فبهتت الجمعية لكلامى واشتاقت للوقوف على ما تفضل به جلالته على من الاحسانات ومتى كان ذلك فاجبتهم ان أول أمر لما توفى والدى ترك لى ميراث عشرة آلاف تومان فأذن لى الملك العادل بوراثتها مع امكان جلالته حرمانى منها وأصبح هذا المبلغ ملك يدى وصار عندى زيادة عليها من وقت تشريفى بخدمة الشاه للآن اثنا عشر ألف تومان ورغبة الخزندار تغير عن اثنى عشر ألف تومان فيكون الباقى عندى ما ورثته وبذلك أحرم مما جمعته مدة خدامتى مع ان الملك لم يأمر بهذه الضريبة ثم صحت باعلى صوتى داعيا الملك قائلا أدام الله مولانا الملك طول المدى ولا ينقص ظله سرمدا وأن يحفه بالنصر على العدا ويكفيه شر الحسود أبدا فبلغ جميع ما قلته من الشكر والادعية لجانب جلالة الملك ولم يمض الا أيام قليلة حتى أحسن على بخلعة الشرف السامى المحتوية على قباء من الديباج وشال لوضعه تحت السديرى وشال آخر لتغطية رأسى وكاكولة من الحرير مبطنة بالفرو الثمين وبعد ذلك أنعم على جلالته برتبة أمير الشعراء وسلمنى الفرمان العالى فاخذته ووضعته على رأسى ثلاثة أيام على حسب العادة الجارية

وانا

وأنا أستقبل المهنئين من أصحابي بغاية السرور وانشراح الصدر وزوال ذهني زيادة عما كنت عليه في أول الامر

ثم أنشأت قصيدة موافقة للمرام بل أزيد وذكرت فيها ما نالني من الانعام والالتفات الملوكي وأثنيت فيها على الملك كل الثناء على ما أولاني به من احساناته الغزيرة التي كانت للخزندار انتقاما عظيما لسوء معاملته اياي حتى انني بذلت في ذمه القريحة ووضعت فيها الالفاظ المعجمة الغير صريحة التي لا يمكنه أن يفهمها لما فيها من صعاب المفردات وعجائب التنويهات والتركيبات وأدخلت فيها ألفاظا عربية أوجبت عليه تعذر قراءتها بالكلية لاحتوائها على الازدراء بمقامه والتنديد عليه بكل احتقار لاني أغلقت المعنى وجعلتها مبهمة المبنى وبذا لم يتيسر لاحد أن يشرحها أو يرمي لها على باب يدخل منه اليها حتى كشفت بنفسي عنها الاستار وأصبحت كالشمس في رابعة النهار

ولم أقتصر على فن الشعر بل لي معرفة بعلم الماكينات وقدمت جملة من غريب اختراعاتي في المجلس الملوكي موجودة للآن وقد اخترعت آلة تتحرك على الدوام ولا يلزمها الا بعض آلات صغيرة لدورانها الى الابد وصنعت ورقا مختلف الالوان واخترعت دواة جديدة عجيبة الشكل وكنت شارعا في تفصيل الملبوسات لولا أن جلالة الملك منعني وقال لي يا عسكر اكتف بشعرك فاذا لزم لي ملبوسات تجلبها تجاري من أوروبا فاجبته بالسمع والطاعة

ومن العادة الجارية ان عند حلول رأس كل سنة يأتي كل فرد من أتباع الملك بهدية الى جلالته على قدر امكانه فلما كان ذلك اليوم عملت على حسب العادة الجارية منكاشا للاسنان وجعلت معه بعض أشعار ووضعته في علبة لطيفة وقدمته له فلما نظرته كبار الديوان وكل من كان موجودا في مجلس هذا اليوم المبارك تعجبوا من حسن صناعته

وأمرهم الملك بتقبيل فى مكافأة لا تعابى ومن جملة ما قلته هذه الابيات

مد أشبه البحر مليك لنا * وشارباه الموج مات الجبان

غر ثناياه ومن فوقها * اللثة المرجان در حسان

أهديته المنكاش لما بدا * شبيه غواص بحر الجمان

فلما سمع الحاضرون هذا التشبيه أعجبهم وشكرنى كل واحد منهم وحيانى على تصورى النير و بلغنى ان الفيردوزى لا يذكر بالنسبة لدرجتى وانه يعد جاهلا محضا بجانبي وكان ذلك واسطة لتمتعي بافضال جلالته العظيمة حتى انه من حبه لى وميله الشديد نحو ازدياد ثروتى وشرفى عيننى لحمل خلعة الشرف المعتاد ارسالها سنويا لنجله أمير اقليم فارس فلما توجهت الى شيراز قابلنى أهلها بغاية الاكرام والاحترام وتساقطت على الهدايا الثمينة من كل جانب فاضفتها على ما معى من الهدايا الاخرى التى أتحفت بها فى بعض البلدان أثناء الطريق و وجدتها تساوى مبلغا عظيما ففيما تنى حادثة أمس وأحرمتنى من هذا كله وها قد سرق منى جميع أمتعتى وأصبحت لا أملك شيأ كأن لى وصرت أفقر وأذل واحد فى الدنيا فان لم تجتهد يا حاجى بابا وتتدبر فى طريقة لهروبى وخلاصى فانى أخاف على نفسى أن أموت أسيرا لانه وان كان الملك أحب ما عليه خلاصى لكن لا أظن انه يفدينى لكراهة الخزندار لى حيث نسبته للجهل أمام الصدر الاعظم وأريته انه مع فطانته هذه لا يعرف يدير ساعة ولا يعرف كيفية صناعتها ولذا أخشى انه لا يبالى بفقدى والدراهم التى كنت أفدى نفسى بها أخذتها الاشقياء ومن أين يتأتى لى الحصول حينئذ على مبلغ مثل هذا ولكن قضى الله على بالوقوع فى هذه المصيبة الكبرى والهلاك المبين فيلزمنى الصبر على القضاء والقدر وانى لا أعارض ما خط بالقلم انما غاية رجائى منك جهدك فى خلاصى ومادمت انك من المسلمين الكارهين لعمر والمحبين للامام على كرم الله وجهه فانا

مستغيث

مستغيث بك ومستجير أن تساعدنى فى نجاتى وتفريج كربى ليكون لك الفضل والثناء ومن الله أحسن جزاء

﴿الفصل الثامن﴾

((فى هروب الحاج بابا من أيدى التركمان ومعنى الوقوع من الشجرة الى النار))

(قال الحاج بابا) ولما انتهى الشاعر من تاريخه أكدت له انى سأعمل كل الطرق والتحيلات وأبذل الجهد الجهيد فى مساعدته للنجاة وأوصيته بالصبر والتأنى بما أنى لحد الآن لم يمكنى التحيل بالحصول على اطلاق حريتى معهم وأريته ما أقاسيه من تحملى المشاق اذا سعيت فى خلاصه ولو حصل ذلك بالفعل لكان مستحيلا لتيقظ أوليائنا مادمنا سائرين فى مثل هذه الصحراء الواسعة المنكشفة من جميع جهاتها سيما وان خيولهم تعادل حصانى فى السير وهم خبيرون بالارض ءى ولهذه الاسباب كنت أعد هروبنا من قبيل الجنون اذ الواجب علينا التبصر فى انتهاز الوقت الذى نتمكن فيه من الفرار وفى أثناء هذا الحديث وصلنا لحدود الصحراء المالحة واقتربنا للمرور على الطريق الطوالى المؤدى من طهران الى مشهد وقبل أن نصل (الى دمجان) بنحو عشرين فرسخا أمرنا أصلان سلطان بالاستراحة مقدار يوم واختفائنا فى جهة منحطة على حدود هذا الطريق بدون أن يرانا أحد وقال لعل أن يكون لنا نصيب وتسعفنا أيدى السعادة بمرور قافلة كما هو عزمه ان بمجرد مرور أحد القوافل يغير عليها وينهبها

وفى صبيحة اليوم الثانى أتى الجاسوس الذى كان منتظرا فوق تل بجوارنا مسرعا وأخبرانه نظر غبارا كالغمام يهب من جهة دمجان ويضرب نحونا فى الطريق المؤدى الى مدينة مشهد فلما سمعنا ذلك استعددنا فى الحال وتركت

التركمان الاسراء مقيدي الايادي والارجل في الجهة التي استرحنا فيها وعزموا أن يرجعوا ويأخذوهم ثانيا بعد شن الغارة على تلك القافلة وسلب مافيها فسرنا نحوها بكل احتراس قاصدين سفك الدماء والنهب وتقدم أصلان سلطان في مقدمة العصبة بقصد الاستكشاف ودعاني اليه وقال لي ياحاجي هاهي الفرصة التي بها تمتاز عن الغير وانك ستصاحبني لاريك الاحتياطات التي علمتها سابقا لجميع العصبة وضروري لك معرفتها جيدا كي يمكنك أن تسلك في مثل هذا المشروع بمفردك في فرصة مستقبلة غير هذه وقد أخذتك أيضا معي في حالة ما أحتاج لترجمان بيني وبين الاسراء لندرة وجود أحد في هذه القوافل يتكلم بلغتنا وباقترابنا اليها نتساوى مع الدليل ونسأله عن حالة القافلة فان لم يمكنا الاتحاد معه فنهجم عليها جميعا مرة واحدة

هذا ولما اقتربت نحونا السياحون انكشف لي ان حالة أصلان سلطان تغيرت وامتزج بالغضب وقال ياخوفي فان هذه ليست بقافلة لاني أرى من فيها يسيرون صفوفا منتظمة ولا أسمع صوت الاجراس كعادة القوافل وأرى الغبار منضما بعضه في مكان واحد وها هي حرابهم ظاهرة وان هذا لهو البلاء المبين وها هو أمامهم خمسة خيالة في المقدمة وما هم الا فرقة سواري ليست فريسة فلا حاجة اليها

وفي الواقع بمجرد اقترابها منا وتحققها جيدا لم نجدها قافلة بل اتضح انه رجل من كبار الحكام سياح مثل محافظ اقليم على الاقل وحوله معيه من خيالة وخدم وحواشي وفي موكب عظيم يلوح عليه الهيئة والافتخار بحسب الاحوال والظروف فعندما رأيت ذلك طرت فرحا معتقدا انها فرصة عظيمة للهروب ولكن لو كنت أتمكن من التوجه جهتهم بدون ان يشك سيدي من جهتي بشئ ولو يأخذوني أسيرا فبوقتها أطمئن على نفسي وان أهانوني فلما ان

فررأيي على تدبير هذه الخديعة ولكي أحقق ماحسبته فبناء عليه قلت لصاحبي لنتقدم قليلا جهتهم وكزت حصاني للامام بدون اذنه فتبعني لكي يوقفني ولكن بعد ان قطعنا مسافة الارض الصغيرة المرتفعة التي تجاه الجهة الراسين فيها كشفنا الركب وكنا على بعد رمية قوس أو أقل فلما نظرونا خرج منهم طليعة مركبة من خمسة أو ستة سوارى من أحسن الخيالة الموجودة وأسرعوا الرماحة قاصدين جهتنا فلفتنا عنان خيلنا وكدنا نطير في الهواء وكان على قدر ما يمكن أصلان سلطان من سرعة السير كنت أنا بالضد في ابطاء الحركة حتى بهذه الحيلة هجموا على وضبطوني وجردوني من حصاني وسلاحي وأموالي وسلبوا مني الخمسين دينارا وجميع أدواتي في أقل من لمح البصر ومع ما كنت أقول لهم انى كنت قاصدا الحضور اليكم برضاى فما كانوا يلتفتون لاقوالي بل أخرجوا طيلساني من تحت القباء وربطوا يدى من خلف وصاروا يوكزوني بالحراب ويلكموني كلما أنا أتأخر في المسير وأنا أستغيث فلا أغاث من شدة الالم حتى قاربت العدم فقلت لا حول ولا قوة الا بالله قد أوقعت نفسي بنفسي في البلاء

المستجير بعمرو عند كربته * كالمستجير من الرمضاء بالنار

ومازالوا يجروني حتى أحضروني لرئيسهم وأوقفوني أمامه واحتاطت بي أتباعه وكنت أرى من الحالة التي تبديها حاشيته من الميل الشديد نحوه والخضوع والطاعة انه لابد وان يكون هذا من عائلة ملوكية وأكدت ذلك لمناسبة اللكمات والضربات التي تراكمت على جسمي ورأسي منهم يريدون بذلك القاء نفسي على الارض والجثو أمام هذا الامير الشاه زاده والناس حولي من كل جانب قام بالافراج عني وبمجرد ماشعرت بحلي واطلاق سبيلي من الوثاق رميت نفسي وقبضت على ذيل جبته وهو على ظهر حصانه وصحت قائلا له (پناپی شاه زاده) يعني أنا في حماية الامير ومستجير به فاني

نحوى أحد أتباعه وأراد قصاصي على هذه الجراءة فمنعه الامير لعدم خرق العادة ووعدني بالحماية والاطمئنان وبعد أن أمر خدمه أن لا يمسوني بسوء طلب مني أن أقص عليه حكايتي وسبب حضوري ووقوفي أمامه بهذه الصفة فخررت ساجدا على ركبتي وقبلت الارض وشرحت له قصتي جميعها بغاية الايجاز على قدر امكاني ولاثبات ماقلته سألته انه يمكن سعادته ارسال خيالة للهجوم على حزب التركمان الذين مازالوا بالقرب منا وتخليص شاعر الملك وشخصين من الاعاجم أسراء تحت أيديهم وبذا يمكنهم اثبات ما أبديته بالحقيقة لسعادتكم فما أتممت كلامي الا والفرسان الذين كانوا خرجوا في أثر أصلان سلطان عادوا بالذل والانكسار وهم يقسمون بالامام علي ورأس الملك ان حزبا عظيما من التركمان يبلغ مقداره على الاقل ألف نفر أقوياء متجهزون للعمل علينا ويلزم الامير الاستعداد لمحاربتهم

فلما سمعت كلامهم طار عقلي وبدون طائل كررت عليهم مرارا أنهم لا يزيدون عن العشرين نفرا فلا يصدقني أحد منهم بل عاملوني معاملة الجاسوس والكذاب وقالوا الى اذا حمل علينا التركمان فلابد من قتلك في هذا المكان وتوجهت طليعة منهم مسافة كبيرة للاستكشاف في جميع الجهات عن العدو المنتظر وهم يعالجون علامات الخوف التي تمكنت في قلوبهم بما اشتهر به اسم التركمان من القوة والشجاعة في عموم داخلية العجم

أسود كفاح بأسهم في رماحهم * كسم الافاعي في أنابيبها يجري

وقد أمروني بالركوب على بغلة محملة عفشا ناظرا السلب حصاني وخلالي الوقت بالتفكر والتأمل في عيشي المنكود وغمي المكمود ومقاصدي التعيسة وأصبحت صفر اليدين لا بارة في كيسي ولا صديق يرثي لحالي ولم أر أمامي شيأ خلاف الجوع المهلك ولكوني لم أصل للآن لدرجة المسلمين الصالحين حتى كان يمكنني تسلية نفسي على القضاء والقدر والصبر على

المصائب

المصائب فكنت أتنهد تنهدات عالية من جنونى الذى كان سببا جبريا لشقاوتى وذلى الآن وميلى الكلى لاهلى ووطنى تحكم بشدة على صدرى حال أسرى عند التركمان حتى وقعت فى هذا المكان ومن شدة كربى وما حل بى صحت عليهم بصوت عال العنهم قائلا لمن حولى كيف تدعون أنكم مسلمون وليس فيكم حاسية الكلاب يا خسرة وما أدراكم ما الكلاب فانكم أقل درجة من كلاب النصارى يا عديمى الشفقة لانكم أنتم والتركمان درجة واحدة

فلما لم أجد لكلامى هذا تأثيرا ولا يزيدهم الاضحكا واستهزاء بى رأيت أن أستعمل معهم اللين فى الكلام وأترجاهم فى الرفق بى فاقسمت عليهم وقلت بحق الامام الحسين وبحق النبى عليه السلام وبحياة أولادكم لماذا لم ترقوا وترفقوا بحال الغريب وتعاملوه بالعنف ألم أكن مسلما مثلكم وعلى دينكم وما الذى حصل منى حتى يوجبنى أتحمل هذا الحزن الشديد وقد التجأت اليكم وأخذتكم أصحابا فكرهتمونى ودستمونى تحت الاقدام وأسأتمونى اساءة العدو شعر

يارب ان عظمت ذنوبى كثرة * فلقد علمت بان عفوك أعظم

ان كان لا يرجوك الا محسن * فمن الذى يدعو ويرجو المجرم

أدعوك ربى كما أمرت تضرعا * فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم

مالى اليك وسيلة الا الرجا * وجميل عفوك ثم انى مسلم

فلم يرق لشكواى ولا يسلينى على مصائبى أحد الا شيخ مكارى طاعن فى السن اسمه على قاتر أولع شيشته وناولها لى لأدخن وقال لى يا ولدى كل أمر فى هذه الدنيا من الله سبحانه وتعالى ثم أشار بيده الى بغلته وقال اذا كان الله خلق هذا الحيوان أبيض فهل يمكننى أجعله أسود وها هو يوما يأكل الحبوب وآخر يرعى الحسك فهل لنا قدرة على مقاومة القضاء حاشا الا والله

فاشرب شيشتك الآن وروّق فكرك وابسط نفسك واشكر الله على مصيبتك هذه فلربما كنت تقع فى أردأ منها فقد قال الحافظ فى كتابه (كل لحظة تمر عليك بالسرور وتتمتع فيها باللذة فعدها من المكسب لان الانسان يعجز عن معرفة الاحوال المستقبلة من فرح وحزن) فهون على المكارى حالتى وسهل كربتى ولما وجدنى متفقها فى كتاب الحافظ وخبيرا بما فيه من المواعظ وعلم منى عدم الاحتياج لبذل النصائح عاملنى باللطف والشفقة وأشركنى فى طعامه المسافة الباقية من السفر وأخبرنى ان الامير الذى وقعت فى يده هو خامس ولد الشاه الذى تولى أخيرا على محافظة اقليم خراسان والآن متوجه الى مدينة مشهد حيث فيها مركز ادارته والموكب الذى هو محاط به زائد عن العادة خشية من حالة حدود التركمان المفزعة وقيل انه صدرت له الاوامر بالشروع فى المناوشات العنيفة مع هؤلاء القوم وفى عزمه ارسال عدة من رؤسهم الى مدينة طهران لرفعها امام بوابة السراية الملوكية عبرة لغيرهم فيجب عليك أن تحمد الله سبحانه وتعالى وتعد نفسك سعيدا لعدم عزل رأسك عن كتفيك ولو كانوا وجدوك جميل الصورة ضيق العينين قليل الشعر بدلا عن حالتك المخيفة التى أنت بها الآن لاعدموك الحياة وأعدوا رأسك من ضمن رؤس التركمان

ثم لما وصلنا الى الاستراحة ليلا فى خان نصفه متخرب كائن على حدود الصحراء عزمت ان اجتهد فى الحصول على رخصة لدخولى عند الامير واسعى فى استرداد الخمسين دينارا تعلق وحصانى وأسلحتى التى لا أخشى ولا أشك فى دعواى بانها ملكى فحدثتنى نفسى وتكلمت بصوت خفى وقلت ان الرجل الذى سلبها له الحق فيها زيادة عما استحق وعلى ذلك انتهزت الفرصة ودخلت أمامه وكان ذلك قبل صلاة المغرب فوجدته جالسا على مصطبة الخان وتحته سجادة ومضطجع على وسادة بقصد الراحة وقبل أن يخفى

الحراس و يضربونى صحت بصوت عال قائلا (عرضى دارم) أعنى التمس عرض مسئلة فعلى ذلك أمرنى بالتقرب جهته وطلب منى عرض ما أريده فقبلت الارض بين يديه وقلت أدام الله مولانا الامير الذى عم البلاد عدله الشهير ثم شرحت له حالى واشتكيت له من سوء معاملتى التى عاملنى بها اتباعه الذين قبضوا على أولا وحكيت له مسئلة سلب الخمسين دينارا ثم ترجيته فى اعادة حصانى وأسلحتى بالثانى فسأل من حوله عن أسماء الرجال الذين تشكيت منهم وأمر رئيس الركب باحضارهم فالمارأيتهم وكانوا شخصين عرفتهما واكدت للامير انهما الشخصان بعينهما فصاح عليهما الامير وقال لهما ياأولاد الكلاب أين الدراهم التى سرقتماها من هذا الرجل فاسرعا منكرين عدم أخذهما شيأ فغضب الامير ونادى بالفراشين وأمر الضابط بضربهما على كفوف أرجلهما حتى يقروا بالخمسين دينارا فلما طرحوهما أرضا وعلقوا أرجلهما فى الهواء وربطوهما جيدا فى العقدة وضربوهما لكنهما اعترفا بالدراهم وأخرجاها وسلمت بوقتها للامير فاخذها وعدها بالثانى ووضعها تحت الوسادة المضطجع عليها وخلص السارقين وقال لى بصوت عال انطلق لحال سبيلك فوقفت فاتحا فمى مؤملا أنه يناولنى الدراهم فلما رآنى السرتشريفاتى على هذه الحالة مسكنى كتافى وأخرجنى فصحت (ودراهمى أين هى) فقال الامير ماذا يقول هذا الرجل اذا تكلم ثانيا فاضربه بالنعل فقلع السرتشريفاتى نعله الاخضر من رجله وضربنى على فمى بنعله المحدد وقال أتتكلم مع ابن الملك بهذه الالفاظ ألم تستحى فاذهب بسلام وافتح عينك والا تقطع أذنك وعلى هذا جرونى وشدونى بحالة العنف وطردونى للخارج فرجعت لصاحبى المكارى وقد قطعت اليأس من التكلم فتعجب مما حصل من الاهانة وقال لى ما الذى تنتظره ياولدى بعد هذا كله أما كفاك أليس هو الأمير ألم تعلم اذا كان

مثله أو انسان خلافه ذو قوة وعزم و يعتلك شيأ أظن انه برده لاصحابه فاذا كانت احدى البغال تأخذ قبضة من الحشيش الاخضر بفمها و بعد ادخالها فى الداخل أيمكن اخراجها بالثانى فمثلها مثل الامير الذى يضرب صفحا على الدراهم التى عنده فاستعوض الله فيها ولا تعاند من اذا قال فعل وما أحسن ماقاله أبو النواس

يا سائل الله فزت بالظفر * وبالنوال الهنى لا الكدر
فارغب الى الله لا الى بشر * منتقل فى البلى وفى الغير
ان الذى لا يخيب سائله * جوهره غير جوهر البشر
ياقلب مهلا وكن على حذر * فقد لعمرى أمرت بالحذر

﴿الفصل التاسع﴾

(فى احتراف الحاج بابا بالسقاية باسباب ما حصل له من الضيق والنكاية)

فلما وصلنا الى مدينة مشهد دخلها الامير فى احتفال كبير وسار بموكب حافل والعساكر مصطفة على الجانبين والعموم يتلألأ على وجوههم البشر والفرح بالاحترام الزائد وهو محاط بالجم الغفير حتى وصل لمقره معززا مكرما وأما أنا فصرت فريدا وحيدا فى مدينة غريبة بعيدا عن الوطن محروما من الخل والخدن لا أنيس يؤانسنى ولا آدمى يساعدنى ولا زوج أمواس يسلينى

ولما تفقدت ما معى من الامتعة و بحثت فيها وجدت خمسة تومان ذهبا كنت سرقتهم من الكيس الذى سلبته من الخان حال وجودى مع التركمان وأخفيتها بين بطانة قاووقى ووجدت أيضا جبة صوف سمراء وقباء من جلد الغنم وقميصا وسروالين ومداسا ثقيلا ولما كنت برفقة المكارى كنت أقتات من جانبه من مرتبه الذى كان يأخذه يوميا أثناء سياحته بمعية

الامير

الامير ولكن لما استغنى عنه الحال وعن بقاله لم أتعشم بانه يعولني فتفكرت بان أعود لسابق حرفتي الاصلية وهي الحلاقة ولكن قلت في نفسي من الذي يأمن على عنقه مني مادمت معدودا من جواسيس التركمان وغير ذلك رأيت انه يلزمني شراء عدة أمواس ودراهمي وأمتعتي لا تكفي لفتح دكان كاملة الادوات مع عدم عزمي على السياحة تخطر ببالي ما أوصاني به صاحبي المكارى العارف باحوال وكيفيات مدينة مشهد من اتخاذي حرفة السقاية وقال لي يابني أنت شاب قوي البنية حسن الصوت ويمكنك استجلاب قلوب الناس اليك بصيحتك المطربة وندائك الموزون سيما وانك خبير بنغمات الاصوات والتملق بالنشيد وطابقة العبارات وتركيب الجمل ونثر المقالات التي تجذب العقول وتضحك بها على الذقون سيما ان الحجاج الذين يأتون الى مشهد لتأديه فروض الحج عند قبر الامام كثيرون والصدقات هي من الواجبات اللازمة عندهم لنجاة انفسهم من العذاب الاخروي فلذا يتصدقون على من يدعو لهم بنيل الاجر والثواب العظيم ولكن بيعك وسقايتك في الماء باسم ومحبة محبوبنا وسيدنا الامام الاعظم ولا تطلب دراهم بل اسق الناس مجانا وتيقن أن الدراهم بذلك تعطى في كفك قبل انسكاب الماء وبعد أن يشرب زبونك قل له بصوت قوي عظيم (جعل الله شربتك بالهناء والسرور ممزوجة بالاحسان والغفران على ممر الدهور وجعل سيدنا الحسين شفيعا لك ولا أذاقك الله عطش امامك الحسين) وهكذا تقول ما عاثل هذه الالفاظ بنغمات عالية وانشادات مطربة حتى يسمعك كل انسان وبالاختصار فانك تخاطب أيضا المتعبدين الذين يأتون من مسافات بعيدة ويقطعون مئات من الفراسخ للتضرع والادعية بقضاء حوائجهم وتصادق لهم على قبول أدعيتهم فانهم يصدقونك ويعتقدون فيما تقوله لاني كنت سقاء في مشهد وتمرنت جيدا

فى هذه التجارة وا كتسبت منها مبالغ وافرة حتى أمكننى شراء جملة بغال وأصبحت منها رجلا كما ترانى

(قال الحاج بابا) فاتبعت نصيحة صاحبي وأبرزت النقود لشراء قربة جلد بنفيسة تحاس لحملها على ظهري وأيضا طاستين لساعتين للشرب ولما اشتريت القربة ملأتها بالماء ونقعتها ازمنا لازالة رائحة الجلد الكريهة ثم ملأتها ثانيا وحملتها وتوجهت الى مقام الامام وابتدأت فى اشغالى والمناداة التى استحسنتها هي (مياه مياه سبيل على مدد الامام سبيل ياعطشان سبيل) وكنت أنشد ذلك وأترنم به بكل قوتى حتى ينفطر قلبي وتنتفخ الرئتان وبالنسبة لكونى تمرنت مدة يومين قبل ذلك بواسطة المكارى وعلى الكيفية عدوت نفسي من أقدم السقائين المتدربين فى هذه الحرفة ولكن بمجرد ظهورى أوجب التفات عموم السقائين نحوى ومسؤليتى عن السبب الذى خولنى الحق بالدخول فى تعاطى حرفتهم ولما أظهرت نفسي عند الصهريج لملء المياه كانت تتشاجر معى السقاؤن حتى ان أحدهم ارادمرة الاجتهاد لطردى منه فلم يتمكن ولما رأوانى ثابت العزم وقوتى قاومت فرقة من شجعانهم امتنعوا عنى واقتصروا على لعنى سرا لتسلطى عليهم وبذا أصبحت القائد لهم وقطعوا ألسنتهم عنى خشية من بطشي

(نعم) وان كان فى نفس الامر أن الطبيعة هى التى سببت لى حرفة السقاية بلا اختيار ولكن من الالطاف الالهية انى حالما كنت أملأ قربتى ولو من صهريج معكر وانادى وأمجد وافخم فى وصفى للماء فكان كل من يسمعنى يظن انها مجلوبة من بئر زمزم المقدسة أو ملئت من أحد الانهر الممتدة من الجنة ولا يتصور بالعقل كيفية تصريفها باسراع وسهولة ولا مقدار الدراهم التى أخذتها نظير السقاية مجانا

وكنت أترقب دواما حضور قوافل الحجاج الذين بمجرد وصولهم وقبل نزولهم من فوق بغالهم وهم مغبرون من السفر وفرحون لوصولهم بالسلامة ونجاتهم من أيدى التركمان اجتهدت ان أسقيهم مياه عذبة واذكرهم ان ذلك من الواجبات الدينية علينا بحال وصولهم لمدينة مشهد واهنيهم بالسلامة حتى بذلك كانوا يغمروننى بالاحسانات العميمة بدون تكلف وهم مسرورون بنجاتهم ووصولهم سالمين وكان يندر عدم التفاتهم لارشاداتى ونصائحى اليهم

ثم ولما اقترب يوم تذكار مقتل سيدنا الحسين رضى الله عنه الذى يعتبرونه فى عموم العجم انه يوم مقدس وان اقامته من الشعائر الدينية عزمت بان انظم نفسى ضمن السقائين فى سلك الموكب الجارى اشهاره سنويا بهيئة الواقعة التى حصلت فى ذلك اليوم وهذا الموكب بما احتوى عليه من تصوير الحادثة المشهورة التى قتل فيها الامام رضى الله عنه كان يمر من امام الامير فى ميدان المدينة فرجوت اكتسابى الشهرة والمنفعة العظيمة حيث أظهرت قوتى على الجمهور بان حملت قربة كبيرة جدا على ظهرى وبينت لهم ما أنا عليه من السعى والاجتهاد

وكان لى عذول اجتهد فى تدبير مكيدة ضدى لما رآه من القبول الزائد نحوى فى العيد الماضى وأراد اقترامى ولكن بالنسبة لعظم قربتى ومافيها من المياه التى لا يقدر على حملها أشد السقائين فلم يتمكن من التسلط عنى ولا أمكنه المنازعة فى رئاستى وقد أخبرنى من اثق به ان هذا الخصم مترقب حركة بها يتمكن من اضرارى للغيرة المتلبسة به وأوصانى بالحذر منه فلما كان اليوم المذكور وسار الموكب داخل المدينة والازدحام حافل جدا وكان الامير جالسا فى أودة على وجهة سلاملك السراية وأنا عريان ولم يكن على جسمى خلاف السديرى والدم يجرى من سيقانى وأنا سائر على مهلى

بالنسبة لثقل قربتي الهائلة فلما وصلت للشباك الجالس فيه الامير جذبت التفاته نحوي بصياحي المطرب ودعائي اليه بدوام العز والسعد والاقبال فرمى لي قطعة من الذهب واظهر سروره مني نظرا للتاديه واجباتي وحسن مسعاي ومن فرحي بذلك ناديت بعض الاولاد الصغيرة الذين كانوا بالقرب مني للركوب على ظهري فوق بعضهم وانا حامل القربة ففعلوا ذلك وتعجبت الناس وازدحموا احولي وهم يثنون عليّ ويشكروني على اجتهادي ثم ناديت على ولد آخر فما أدري الا وخصمي فرق الجموع ونط راكبا بقوة زائدة يريد البطش بي وطرحي على الارض بحملي وانه لاشك ان هذا هو الوقت الذي يتمكن فيه لاعاظتي ولكني قويت نفسي وشددت ظهري على قدر طاقتي وقويت عزمي في رفع حملي بين الجموع الذين كانوا ينشطوني ويشجعوني والكل باهتون وينظرون لي وماشعرت بألم حال اظهار قوتي في رفع هذا الحمل وحرارتي في بذل مجهودي ولما أزحت الحمل عن ظهري وفرجت عن نفسي وجدت أن ظهري انقسم وحصل لي تعب شديد ورأيت ان حالتي لما اعتراها من الضعف لاتقوى على مداومة حمل السقاية ونويت ابطالها كلية وبعت قربتي وجميع أدواتي حيث أصبحت في غنية عظيمة من الدراهم التي جمعتها من بيع المياه وعدت لحالتي الاولى وقت وصولي لمدينة مشهد الا أن صاحبي المكاري سافر مع قافلة الى طهران قبل العيد بيومين ولذا حرمت من مشوراته ونصائحه وكنت عازما على اعمال دعوة ضد خصمي وطلبه أمام القاضي ولكن رأيت ان الشريعة المحمدية لاتجوز كسر ظهر بظهر وفقط المكتوب العين بالعين والسن بالسن ولم يذكر الظهر بالظهر ولو كان لي محام يذب عني ويقهر خصمي لاخذ بثاري وقد وجدت نفسي غريبا لا يعرفني أحد وليس لي من مساعد ومهما فعلت لا أنال شيأ الا ضياع الدراهم التي اكتسبتها فتركته وسلمت

أمرى لله سبحانه وتعالى

الا ان هذا الدهر لازال مولعا * بجراحى فضل فيثقله وقرا
ولم يكفه حتى بسدد نحوه * من الخطب سهما صائبا يقصم الظهرا

﴿الفصل العاشر﴾

((فى تدبيرات الحاج بابا لنفسه وصيرورته بياع دخان على قارعة الطريق))

ثم مكثت أشاور نفسى فيما أفعله فى مستقبل معيشتى وقد انفتح امامى جملة أبواب مختلفة للمعيشة ورأيت ان أعظم طريقة أسلكها هو (سؤال الناس الصدقة) التى لها موقع حسن فى مدينة مشهد وقد برهنت على ذلك من بيعى المياه وانه يمكننى فى أقرب وقت الرئاسة على هذه الحرفة ثم تفكرت فى حرفة اللوتى وان اشترى دبة فقلت فى نفسى ان هذه الصنعة يلزمها التمرين وتعليم الطرق التحيلية من جهة وكيفية تربية الدبة من جهة أخرى وعلى ذلك رفضت هذا الامر وكان عقلى يتروى فى اتباع حرفتى الاصلية وهى الحلاقة وقلت اذا فحصت دكانا فلا يمكننى السلوك فيها بالنسبة لكثرة الحلاقين فى هذه المدينة وشهرة الكثير منهم فى اتقان هذه الحرفة فأخيرا انا زلت عن هذه التصورات وقررأيى بان اسرح فى الشوارع بالدخان لميلى الشديد فى تعاطيه ومعرفتى بانواعه وعلى ذلك اشتريت جملة شبكات مختلفة الحجم وعلبة خشب محتوية على افمام الشبكات وعلقتهما حول القباء واشتريت مجمرة حديد للنار احملها بيدى وماشتى حديد وكوزا نحاسا للمياه مشبوكا بخطاف خلفى وبعض أكياس طوال لوضع الدخان فيها وربطت جميع هذه الادوات حول جسمى وكنت لما اشحن بها نفسى كان كل من يرانى يقول انى مثل القنفذ المنتفش شوكه وكان عندى انواع

مختلفة من الدخان مثل تباز وشيراز وسوذه ودمشق وفى الحقيقة ما كان عندى ضبط كلى فى بيعه نقيا فانه بوجود جزء صغير من ورق الدخان الصافى كان يتكون عندى مبلغ وافر بواسطة مزجه بجزء كبير من أنواع الزبل المختلفة وكان لى مهارة عظيمة فى التفرس فى زبائنى ومعرفة أصحاب الكيف الذين لا يجهلون شرب الدخان فكنت أعطيهم من الدخان الذى اغلبه صاف وفى الواقع كانت جميع مكاسبى متعلقة بفرز وتمييز الطبائع فالناس المتوسطون أعطيهم النصف ممزوجا والاقل منهم الربع صافيا والثلاثة أرباع مغشوشة واما الدون فكنت أغشهم بزبل البهائم الخالى من الدخان وكنت عندما يتراءى لى وجه عبوس يشكو من رداءة الدخان ففى الحال ابذل مجهودى اليه فى تحسين دخانى وأريه جزأ من الصافى وانشد له فى ذلك أبياتا بليغة وأخبره عن الزارع الذى بذره وجمعه وأجتهد بان اصف له اعظم أرض غافيها هذا الصنف حتى انى اشتهرت فى مدينة مشهد بلطافة شبكاتى واعظم زبون عندى كان درويشا اسمه صفر ما كنت اتجاسر على اعطائه دخانا مغشوشا لمعرفته فيه ولم أربح منه شيأ الا الطفيف لتأخره فى وفاء الثمن الا أنه كان أنيسا يسلينى بمجاورته اللطيفة على همومى وزيادة على ذلك فانه توسط لى فى احضار جملة زبائن حتى ان محبته صارت غريزية فى قلبى وجسمى وكان الدرويش صفر غريب المنظر ذا انف مستطيلة كبيرة وعيون حادة سوداء ولحية غزيرة وكان مسترسلا على كتفيه كمية عظيمة من الشعر الاسود وكان لابسا قاووقا مخروط الشكل مكتوبا عليه كثير من الآيات القرآنية والاحاديث القدسية وعلى ظهره جلد غزال أحمر من الخارج وبيده عكاز من الفولاذ يحمله على كتفه فى أغلب الاحيان وبيده الاخرى كشكول فارغ ذو سلاسل ثلاث يرفعها امام السياحين عندما يطلب منهم الصدقات وكان

لا بسا فى منطقتـه أبازيم من حجر اليشم ومعلقا فيها جملة من مشا بك خشب ثقيلة ولما يخطر فى الشوارع والاسواق بهـذه الهيئة يستعمل الالفاظ العذبة و يظهر الرعب والخوف والمذلة لمن يسألهم و يبدى لهم التشكرات والامتنانات و يكلمهم بالخضوع وقد علمت ان هـذه حيلة منه على المعايش لانه لما كان يحضر عنـدى لشرب الدخان و يختلى بى ولم يكن أحـد معنا كنت اجـده ألطف وافصح الناس منطقا وجسارة و بعد أن تمكنت المحبة بيننا مـدة عرفنى بشرذمة قليـلة من الدراو يش وهـم اناس من شكله وحرفتـه الا أنه كان منفردا بعيشتـه وكنت أتردد غالبا فى جمعياتهـم وان كانت هـذه الحالة على غير المرام ولكن لحسـن جمعياتهم ولطافتها ما كان يمكنى الاعراض عنهـم لا للنظر لكـثرة تعاطيهـم الدخان فانى كنت أبيعـه اليهـم بدون مكسب يقوم بانعا بى مثل زبائنى ثم حـدث ذات يوم ان الدرويش صفر جلس عنـدى يتحدث و بعـد أن اكثر من التـدخين فوق العادة قال لى

(يا حاجى بابا) انى أراك رجـلا أنعم بك من انسان وانى أراك لست أهلا لبيع الدخان طول حياتك فلماذا لا ترافقنا وتتخذ حرفة الدراو يش مثلنا أما تعلم أننا نقبض على ذقون الرجال بكل سهولة وهى عندنا أهون من التراب على انه يندر وجودنا فى جهة واحدة بل ننتقل من مكان الى آخر وهـذه تختلف بحسب الاحوال والظروف على حسب ما نحن فيه من الكسـل وان الجنس البشرى أمام أعيننا مثـل فريسـة سهلة المأخـذ وبذا نعيش على ضـعف قلوبهم وسخافة عقولهم وبما رأيته من فطانتك وحذاقتك أظن انك تشرف حرفتنا وتجعل لها الصيت الاعلى وما يمضى غير قليل حتى يشتهر أمرك شهرة تامة لا تقـل عن شـهرة الشيخ السـعدى نفسـه فلما سمع أقرانه كلامه صـدقوا على مقالته وصار وا يمدحونى و يغوونى على دخولى معهـم فى سلك

الدراويش فاعتذرت لهم بجهلي وعدم معرفتي هذه الحرفة ويلزمني بعض تمرينات وتعليمات وقلت لهم كيف ذلك وأنا رجل جاهل لا أدرى شيأ وأدخل في الدروشة مع ان الانسان يلزمه أن يكون حاذقاذا معرفة ببعض معلومات يحتاج اليها الدرويش (نعم) حقيقة أعرف الكتابة والقراءة وأحفظ القرآن ودرست كتاب الحافظ والسعدى تقريبا على ظهر قلبي وخلاف ذلك فاني قرأت جزأ أعظما من شاهنامة الفيردوزى وماعدا ذلك فاني أعد نفسي فيه جاهلا بالكلية

فاجابني الدرويش صفر قائلا آه ياصاحبي ماهذا الكلام أما تعلم ان الدراويش عدموا المعرفة وانهم أقل الناس علما ولا تحتاج لمعارف لدخولك ضمن الدراويش فليس ذلك من صعاب الامور وأول أمر يلزمك هو الثبات والتجلد وانك بخمس المعلومات التي ذكرتها وبجزء من الكسافة والوقاحة أعدلك انك لا تتسلط فقط على أكياس الدراهم بل وعلى حياة من يلقوا آذانهم اليك فاني بالوقاحة صيرت نفسي نبيا وصاحب معجزات واني أعيد الاموات لحالة الصحة

وبالوقاحة فاني أختصر لك أسهل طرق المعيشة واني مهاب ومعتبر بالناس الذين مثلك أماتدرى ياحاجي حالة الدراويش وماهم عليه من المكر والخديعة فالدروشة شئ لا يذكر أما تعلم ياحاجي اني اذا أردت أتعب نفسي وأتحمل الاخطار وأظهر انه في امكاني ابداء معجزات سيدنا محمد عليه السلام فانهم يعتقدون أني نبي مثله أما تعلم ياحاجي انهم يعتقدون من شدة جهلهم انه في امكاني أشق القمر نصفين باصابعي كما فعل النبي عليه السلام وقد تخيلت بمثل ذلك حتى اعتقدت الناس الذين يسمعون بمعجزاتي أما تعلم ان الوقاحة والسماجة ينتج منهما ذلك وأكثر منه بواسطة طرق مستحسنة يلزمها السعي بهمة والتفات

قال

(قال الحاج بابا) فلما انتهى الدرويش صفر من حكايته صدق عليه جميع اخوانه وهم يزدادون مدحا وثناء عليه ويكررون جملة خرافات عجيبة من ضمن أعمالهم التى سبقت لهم حتى انى تشوقت جدا للوقوف على حالة هؤلاء الرجال الفائقين الحد فى المكر فوعدونى انهم يقصون لى تاريخ حياتهم عند المقابلة مرة ثانية وأوصونى غاية الوصية بوقتها وشجعونى بان أحول أفكارى لمعيشة ذات شرف ورفعة مثل هذه أحسن من أن أكون بياع دخان متصفا بالغش وعدم المأوى

﴿الفصل الحادى عشر﴾

﴿فى تاريخ الدرويش صفر والدرويشين الآخرين﴾

فلما اجتمعنا ثانيا وكل منا بيده شبك وجلسنا فى غرفة راكنين ظهورنا للحائط وكان شباكها مطلا على ميدان صغير مزروع بالازهار ولكون الدرويش صفر هو الرئيس المقرر لجمعيتنا الآن فابتدأ بقص تاريخه بما يأتى (قال الدرويش صفر) ان والدى كان متوظفا بوظيفه لوتى باشا (رئيس مسخريه وحواء أمير شيراز)! وقد اشتهر باسم الطاوس وهو اسم مقبول واذا كانت وظيفته هذه فلا يخفى عليك حالة نشأتى وتربيتى كيف كانت حيث ان أعظم أصحاب اجتمعت بهم مدة طفوليتى هم قرود ودب والدى وأصحابه المماثلين له فان الحيل العديدة التى تعلموها والطرق السهلة التى اتخذوها فى تربيتها كانت فائدة لى مدة حياتى نظرا لما كنت أراه من الشخص اللطيف وبذلك لم أتم سن الخمس عشرة سنة حتى صرت لوتيا مستعدا فكان يمكننى أكل النار وتأدية شغل الحيل والمكايد اليديه وكنت على وشك النجاح فى هذه الصناعة لولا تعلق بنت جنرال جالة طو بجية الامير بعشق عندما رقصت ذات مرة ولعبت على عقدة البهلوان بالديوان

فى أحد أعياد أول السنة وتصادف ان أحد الجمالة الذين تحت سلطة هذا الجنرال كان صديقا لى وله اخت تخدم فى منزل الجنرال فاخبرته اخته بما حدث لابنة الجنرال ومابها من الهيام بعشقى حيث انها لمحت من سيدتها بعض اشارات تدل على محبتى

فلما أخبرنى بذلك صاحبى مال فؤادى اليها واسرعت الى مرزا (كاتب) قاعد فى دروة صغيرة فى السوق وسألته أن يكتب لى جواب عشق ويكثر من احمرار الحبر على قدر امكانه ويبالغ فى التحية والسلام ويبث فيه ما أصابنى من العشق والهيام وينشد فيه القصائد والاشعار التى تحير الافكار فلما كتبه وقرأته وجدته عذب الالفاظ عديم المثيل شفاء للعليل بل هو السلسبيل يهيم بمطالعته العاشق الولهان ويفيق بسماعه المغرم السكران ويقول فى مطلعه بعد العنوان الى سيدتى المعشوقة فريدة الزمان مامعناه

لما بدت عيناك * قد ذبت من هواك
بقدك الفتاك * هل حيلة للقاك
أو نظرة من بعيد * أحسن من ألف عيد
تبشرا لعميد * بنيل وصل سعيد
أنا عبدك المكمود * ان لم تفى بالوعود
عدمت فيك الوجود * وملتقانا الخلود

(قال الدرويش صفر) فلما قرأت الخطاب وانسر منه خاطرى واستطاب انبسطت من الكاتب الذى سلانى وبلطافة نثره شجانى الا أنه لما وقف على حقيقة سرى المكنون لم يستقر فى مكانه بل هرول يخبر الجنرال بالواقعة راجيا أن يجازيه نظير اتعابه وقال له كيف ان ابن اللوتى باشا واصل بنته

زمبور كشي باشي بالفاظ غزلية فهذه غاية لا تدرك وذنب لا يغفر ففص والدها لهذه الحكاية وقصد بي التكاية ولكونه نافذ الكلمة في الديوان عرض للامير مسئلته بالبيان وتحصل منه على أمر يؤذن بطردي حالا من شيراز وكان يوما مشؤما فرح فيه أعدائي وتجنبني أصحابي وأخصائي فلما بلغ والدي هذا الخبر المشؤم ما استطاع ان يتفوه بكلمة حذرا على مزاج الامير من الاغبرار وزيادة على ذلك خوفا من ازدياد شهرتي بين أبناء جلدتي ووقاية من منازعتي له في حرفته لم يؤخرني عن الرحيل بل أخذ في استعداد ما يلزمني

ثم وفي صباح ثاني يوم وانا متاهب للقيام من شيراز وكنت أودع أصحابي القرود والدبب وحيوانات أخرى عند والدي قال لي (ياولدي) يا صفرا علم انك أنت مهجة قلبي وثمرة فؤادي ولبي ولا طاقة لي على فراقك ولكن طاعة للامير تحملت هذا الضرر الخطير وها قد أودعتك عند رب العالمين حيث قال تعالى واطيعوا الله والرسول وأولي الامر منكم واني مؤمل يا بني انك تعيش مدة حياتك في أرغد المعايش بالنسبة لتربيتك والفوائد الخصوصية التي تحصلت عليها بوجودك في جمعيتي بيني وبين حيواناتي واني سأتحفك الآن بما يؤكد ويحقق لك سعادة قريبة ألا وهو قردي الكبير الرئيس عليهم وهو مستوفي التربية بجميع انواعها فخذه يا ولدي وتصاحب معه وألفه عليك لخاطرك وأكرمه حبا لوالدك وعشمي انك في وقت قليل تكتسب الدرجة العظمى في الشهرة التي حازها والدك وبعد ان أنهى كلامه وضع القرد على كتفي وودعني وخرجت مصحوبا به تاركا الاهل والاوطان سالك الطريق الموصل الى أصبهان وانا في كرب عظيم حيث شق علي معرفة حالتي ان كنت سعيدا أو شقيا لتغيير هذه الاحوال لان وجودي مستقل مع القرد دلالة على سعدي وتسليتي به وأما هجري

أصحابي وأوطاني الغالية التي ربيت فيها منذ طفوليتي وزيادة على ذلك فراق حبيبتي اللطيفة التي لم أرها بل تصورت في ذهني انها تعادل (شيرين) المتصفة بالجمال في القدو الاعتدال فهذه الاحوال كدرتني وما أدري وانا تائه في بحور التذكار حتى وصلت الى صومعة أحد الدراويش وكنت في حالة رديئة كدت فيها أن اقطع اليأس من حياتي فجلست على حجر بقرب الصومعة وفردي بجانبي فهونت على نفسي لتخفيف حزني وسالت دموعي على خدي كالطوفان وصحت بنغمات كل من يسمعها يشفق بحالي وقلت آه آه واهي ياغربتاه ويا ذلي بعد عزي ومفارقة اهلي ووطني

فلما سمع الدرويش صياحي خرج من خلوته وسألني عن مصيبتي وما دهاني من نكبتي ثم ادخلني الى مكانه فوجدت درويشا ثانيا عليه هيبة وعظيم المنظر عن رفيقه اذ كان لابسا مثل لبسي هذا والقاووق الذي على رأسي الآن هو حقيقة تعلقه والذي أوجبه هذه الهيبة والوقار هو ما جبل عليه من هيئته الوحشية وتقطيب وجهه الظاهري وبمجرد ما رآني مع رفيقي القرد أحاطت به الافكار ودعا بالدرويش الثاني وبعد ان تداولا في خلوة قال لي ان في عزمه مصاحبتي الى مدينة أصبهان ووعدني بالتفاته الزائد نحوي واني اذا أحسنت سلوكي يرشدني الى الطريقة التي تكون سببا في ثروتي فبوقتها قبلت منه ذلك وبعد ان ناولني شبكا آخذ خنه فلما شربته قمنا وسرنا مسافة طويلة بدون أن أتكلم معه الا القليل وكان اسمه الدرويش (بدين)

ففي أثناء المسير اقترب نحوي وسألني عن حالتي السابقة فقصصت عليه رحلتي فلما سمع ما أنا عليه من العلوم والمعارف وكانت تلوح عليه علامات السرور الدالة على انبساطه مني أطنب في المدح على الفوائد التي تنتج من

معيشة

معيشة الدرويش واثبت رفعتها وشرفها عن حرفة اللوتي الدنيئة وحرضني على الدخول في حرفته ثم أخبرني اني اذا التفت اليه واعتبرته كسيدي فيعلمني جميع مايعرفه بعد أن أكد لي أنه على جانب عظيم من المعارف وزيادة على ذلك فهو معدود من أشهر وأكبر الدراويش في بلاد العجم

وشرع يتحدث معي عن السحر وعلم الفلك وذكر لي جملة أبواب في العزائم والطلاسم والاحرازالتي يستعان بها عند الروم واني ببيعها اتحصل منها على مايكفيني من الدراهم واخبرني ان من الفوائد انك اذا وضعت ذنب أرنب تحت وسادة الصبي فانه ينام واذا سقيت دمه لحصان يجعله سريع الحركة في السير وكذا عين واصبع ومفاصل الذئب اذا علقت على الصبي فانها تقويه واذا اندلكت بدهنه المرأة تتبدل محبة زوجها اليها بالاغضاء والكراهة وأيضا اذا اندلكت بمرارته المرأة يكون لها القبول والمحبة في قلوب الناس وان أعظم شئ ذو قيمة ثمينة يستعمل في السرايات هو كيس كوفتار (وهو جلد اللبوة اليابس) اذا لبسه الانسان وجعله رداء له فان محبته تنبت في قلوب جميع الناس ويميل اليه من يراه

واستمر الدرويش بدين يتحدث معي طويلا في مثل هذه المواضع وأغواني واستمال عقلي بغرس هذه الفائدة في قلبي التي بها أظهر لي النجاح عيانا ومازال كذلك حتى انه أخيرا تجاسر ان يبتدئ في بيان مشروع بعد ان أورى عدم امكان موافقته وقال ياصفر انك لا تعلم الكنز الذي تمتلكه في هذا القرد ولم أقصد وجود الكنز في حال حياته بل بعد موته ولو كان ميتا لامكني ان استخرج منه بعض اجزاء تعمل أحرازا وتباع بثقلها ذهبا داخل حريم الشاه ويلزمك ان تعلم ان كبد القرد وهو الذي يكون من جنس قردك لاغير اذا حمله الانسان فانه مجرب في جلب محبة من يريد وقضاء حوائجه واذا لف الانسان جلد انفه حول عنقه فيكون مانعا حصينا

لدفع السموم وهو من التجاريب العظيمة ورماده بعد حرقه على نار بطيئة اذا استعمل من الداخل للطفل فانه ينمو بخصال القرد ومكره وخديعته وتكون جميع تصوراته مشابهة لتصورات القرد في كل أعماله وعلى ذلك شرع في قتل القرد فحصل لي انزعاج كلي لهذا القصد لان تربيتي كانت مع قردي من الصغر وانما نحن جنسا سوية لطلب المعيشة وزاملني في السراء والضراء وقتله بهذه الحالة الوحشية لا طاقة لي ان أتحمله على ما أنا فيه من الغم والكرب فصرت أحاوله عن قتله ولكني لما رأيت بشاشته ومحبته نحوي كادت ان تميل للقسوة والخشونة وخشيت أن يأخذه جبرا مع عدم مقدرتي على حمايته قبلت وأنا في غاية الحزن الشديد الذي لا يتصور باتمام مقصوده ونجاز مطلوبه

فلما سمع ذلك شكرني وملنا عن الطريق لواد صغير خالي عن الناس وجمعنا سوية بعضا من القش والحطب وعملنا اركية وأخرج زنادا وصوانا كان معه وأولع به النار ومسك قردي بيديه بدون شفقة وذبحه وشرحه وأخرج كبده وسلخ جلدة انفه وحرق باقيه على الكانون الذي عمله ولما احترق جميعه وصار رمادا جمعه بكل احتراس ولفه في طرف فوطته واستمرينا في سياحتنا وظللنا سائرين حتى دخلنا في الوقت المناسب مدينة أصبهان وفيها قلعت ملابسي التي على شكل اللوتي ولبست بدلا عنها على زي درويش وقمنا منها قاصدين طهران وفي هذه المدينة تحققت من علو درجة سيدي حيث بمجرد ما استنشقت الاهالي حضوره أقبلوا يتزاحمون للسلام عليه واستشارته في الامراض وحل الامور فكنت أجد الامهات تطلب منه حرزا لاولادهن من الحسد والنظرة والزوجات تطلب حجابا للمحبة ازواجهن من غيرتهن عليهم والشجعان تطلب منه طلاسما لحمايتهم من ضرر وخطر الحرب أثناء القتال وكان أعظم زباينه حريمات السراية الملوكية حيث

أغلب مايطلبونه حجاب يستجلبون به التفات الملك نحوهن (قال صفر) وقد جمع الدرويش بدين مبلغا عظيما من المهمات والادوات اللازمة لهذا المشروع فكان مستحوزا على شعر الفهد وسلسلة البومة وشحم الدببة مجهزا اجهزة مختلفة وقد حدث ان احدى السيدات الموجودات فى السراية كان الملك لا يلتفت اليها لتقدمها فى السن وتأخرت عن أقرانها فأتت اليه واخبرته بالمسئلة فباع اليها كبد فردى وقال لها انك بحملك اياه وبمجرد ظهورك امام الملك فانه يحبك محبة عظيمة ويقدمك على اقرانك وتفوزى بالنصر على أعدائك واتت اليه أخرى وأخبرته بما اعتراها من التمرض والانحراف دواما وانها أعيتها الحيل فلم ينجع فيها الدواء فاستخدم لها منقوعا من رماد قردى وحضرت له امرأة ثالثة واشتكت له من تكرش وخشانة وجهها فاعطاها دهانا وأوصاها انها اذا استعملته ولم تتبسم ولم تحرك أعصاب رجلها فانه بدون شك يزيله ويمحو أثره كلية وفى هذه المدة كنت ابتدأت فى تعليم جميع هذه الاسرار ووقفت المرار على قسم كبير من المكر والخداع والحيل مما كان يستخدمه سيدى عندما يضطر لعمل فوق العادة لاثبات صداقته وكرامته اذا اتضح ان احرازه لم تأت بادنى ثمرة ولكن مهما كانت الحالة ان لم ينجع بواسطة هذه الاستخدامات فلا بد ان تحصل فائدة من أجزاء قردى وكان يأخذ جميع الدراهم لنفسه بدون ان أمس منها بارة وقد رافقت الدرويش بدين فى جملة بلاد نباشر فيها حرفتنا فكان الناس يعدوننا بعض الاحيان كالاولياء ويشار لنا بالبنان وأحيانا نارجم بالاحجار كالتائهين ولكون سياحتنا كانت جميعها على أقدامنا فكان ذلك فرصة عظيمة لمعرفتى الاماكن والبلاد تفصيلا وقد سافرنا من طهران الى اسلامبول ومنها الى مصر القاهرة مارين على حلب ودمشق ومن مصر توجهنا الى مكة المكرمة والمدينة المنورة وركبنا البحر من جدة ورسينا

على سورات فى برجوزرات ومنها سلكنا قاصدين لاهور ومنها الى كشمير وفيها على حسب عادتنا اجتهد الدرويش فى أن يغش أهلها ويدخل عليهم بالتحيلات ولكن لكون أهلها متنورين ويعرفون مانحن عليه من المكر والخديعة اجبرنا على الانسلال منها خائبين واتفقنا على الرحيل الى مدينة هيرات حيث عدنا الفلاحنا ونجاحنا السابق لقصور عقل الافغان الذين كانوا يقبلون ويميلون لكل مانحتاج ان نخبرهم به

وبما أن الدرويش كان فى هذه المدينة مجتهدا فى الحصول على طريقة يظهر بها نفسه انه نبي وقد قاربت معدات أعمال المعجزات على الانتهاء وقد كان وعد الوفا بحفظ شبو بينهم على الدوام فاخيرا كان هو اول من وفى بتسليم نفسه الى طوارق الطبيعة وذلك انه كان استكن فى صومعة صغيرة فوق جبل بالقرب لهراج وقفها عليه وادخلنا فى ذهن الناس الطيبين انه لايأكل طعاما غير الذى يحضرونه له الجن والاعوان وصدقوا ذلك ولكنه من سوء البخت لشدة شراهته على الطعام احدى المرار كان أكل قوزيا مشويا وحلاويات زيادة عن طاقته فتسبب له منها تخمة قتالة وبالنسبة لذمتى وصداقتى معه التزمت بان أقول للناس انه نظر الغيرة الجان منا نحن الجنس البشرى لاستحواذنا على رجل جليل المقدار مثله احضروا له طعاما مسموما وملؤا جسمه منه حتى تورم وانتفخ ولم تجد روحه مقرا لها فانجبرت بالخروج من جسمه وحملت الى السماء الخامسة بريح شمالى عاصف (اذ كان هبوبه فى هذا الوقت عند موته)

وهذه الريح كانت تهب أربعة أشهر الصيف وبدونها تكاد الاهالى تموت من شدة الحرارة واجتهدت أن اجعلهم يصدقوا ويعتقدوا ان هبوبها كرامة من الدرويش اليهم وانها ستكون ميراثا لهم ولذريتهم من بعدهم فالمشايخ الذين حقيقة تذكروا هذه الريح منذ صباهم كانوا ردون

أفكارهم فيها اغا القصر فهمهم وركاكة ذهنهم اطبقوا على ما أبديناه من التأثير وسلطة أعمالنا فدفن الدرويش بغاية الاكرام والاحترام الزائد حتى ان أمير هراة عاشق ميرزا ساعد بحمل النعش على كتفه الى القبر وبنى أحد أتقياء الافغان المشاهير ضريحا له على قبره وصارت من وقتها تأتى اليه سكان البلاد المحيطة به لزيارته وأصبح محلا للحج اليه سنويا وقد أقمت فى هراة مدة زمانية بعد وفاة رفيقى كى أتمتع بالفوائد والهدايا التى كانت تعطى لى لكونى صاحبا وتلميذا الشيخ مثل هذا حاز أعظم شهرة وبذا لم أندم على هذا العزم ثم بعت احرازى التى عندى باثمان غالية وغير ذلك جمعت مبلغا وافرا من بيع الشعر الذى كان يتساقط من غشيط لحية المتوفى وقلامة أظافره وأكدت للمشترين ان الشعر المتساقط والاظافر تحفظت عليها مدة وجوده على الجبل مع انه فى نفس الامر أغلبهم متجمع من شخصى وبعد ان بعت جزأ وافرا من آثار الدقون والاظافر التى كنت أتحصل عليها راودت فكرى انى اذا استمريت على هذه الحيلة خشية من تنبه خسافة عقول الافغان يكشف سترى ويظهر غشى فلذلك سافرت منها الى جهات مختلفة من بلاد العجم واستقريت أخيرا فى قبيلة هزارة وهى قبيلة كبيرة أغلبها يسكن الخيام ويقيم فى الخلاء الفسيح الذى بين كابول وكندهار وهنالك طاب عيشى ونجحت نجاحا عظيما زيادة عما كنت انتظر لاستعمالى التحيلات التى كان يجريها المرحوم الدرويش بدين فى مدينة هراة وبالفعل ظهرت بينهم على هيئة نبى

(قال الحاج بابا) وبينما كان الدرويش صفر فى سياق حديثه اذ وضع يده على كتف الدرويش الجالس بجانبه وقال ان صاحبى هذا كان مرافقا لى فى تلك الجهة وهو خبير بخداعنا ومهارتنا فى جذب عقول الهزارة حتى انهم كانوا يعتقدون ان عندنا وعاء مملوءا من الارز المفلفل على

الدوام وقد فهموا أن وجوده ملآن بدون أن ينقص فهي معجزة رسمت فى ذهنهم السخيف واستمروا على اعتقادهم ماداموا يأخذون نصيبهم من هذا الوعاء

و بالاختصار فأنا المشهور باسم (حضرة ايشان نفسه) الذى سمعت عنه سابقا فى خراسان وان كانت شهرتى الظاهرة لم تبرهن باظهار أدنى معجزة ضد الاغارات التى أغار بها الشاه عليها باسلحته ولكن بعد انتهائها جمعت من تلامذتى الذين يتقوون الى تطياشهم وتقلقل عقولهم ما يكفينى لمعيشتى بعيشة هنية مدة حياتى ثم حضرت مدينة مشهد وأقمت بها من مدة قريبة ولم يمض علينا أسبوع حتى أخذنا نتدبر فى اعادة نظرا بنه ضريرة وها نحن الآن فى درجة عظيمة من التبجيل والاحترام

(قال الحاج بابا) والى هنا انتهى الدرويش صفر من تاريخه وطلب من رفيقه المجاور له سرد ما وقع له وهو الدرويش الذى كان من اقاله فى قبيلة الهزارة فقال ما يأتى

ان والدى كان رجلا من أشهر أتقياء مدينة (كوم) وقد شاع ذكره بمواظبته على الصلوات الخمس ودقة الوضوء والتمسك بالديانة والصيام بكل احتراس زيادة عن أعظم رجل فى بلاد العجم و بالاختصار كان زهرة الشيعة وأعوذجا للامة الاسلامية وكان له جملة أولاد وقد أحسن تربيتنا وعلمنا بكل دقة قواعد دياننا وأما العنف والشدة التى كان يعاملنا بها مدة تربيتنا كنا نتقاومها ونصادمها بالمكر والرياء حتى اننا اتسبنا لهذه الاوصاف وأصبحنا بصرف النظر عن أحوالنا كزمرة المنافقين المنتشرة وبالاخص شاع أمرى ولكن لوقايتى من هذه الفضيحة دخلت فى سلك الدراويش وشهرتى منسوبة للحادثة الآتية التى نتج لى منها الحظ الوافر وكانت سببا لسعادتى وهو انى لما فت من بلادى ووصلت مدينة طهران اتخذت مسكنا

مقابلاله كان عطار وبينما أنا على هذه الحالة اذ أسرعت نحوى عجوز تخبرنى ان سيدها العطار اعتراه مرض شديد فى هذا النهار باسباب تعاطيه طعاما زيادة عن طاقته وان الادوية التى استعملها لم يؤثر مفعولها وان عائلته يريدون تجربة الفوائد الروحانية لعلها تؤثر وترجتنى ان أكتب له تعويذة موافقة لحالته وبما انه لم يكن بطرفى فى هذا الوقت أقلام ولا ورق ولا حبر فسألتها بتوجهى صحبتها داخل الحريم فقبلت ذلك وقت معها فاوصلتنى الى فسحة مربعة ودخلت أودة حيث وجدت المريض ملقى فوق فراشه على الارض وكان محاطا بجملة من النساء على قدرما يسع المحل فلما رآنى صرخ صرخة عالية قائلا واهى واهى يا الله يارب قد أشرفت على الهلاك

فرأيت أدوات المعالجة منتشرة فى المحل بعد العملية التى أجراها اماأن يموت بواسطتها أو ينجو بها وشاهدت أيضا طشطا موضوعا فوق الرف محتويا على احقاق الادوية ووجدت انبوبة زجاج وهى آلة العذاب موضوعة فى احدى الزوايا وا لحكيم جالس غير مبال يشرب فى شبكه بين هذه الادوات وقد أيقن ان وسائط الجنس البشرى عاجزة عن نوال مقصودها مالم تستعن ببعض مساعدات خارقة للعادة ولذلك قرر أيه أخيرا على استعمال الفوائد الروحانية التى كان من نصيبى كتابتها

ولا يخفى ان الدرويش الجديد يشغل أفكارهم بآماله المستجدة لان دخولى على المريض أوجب لهم هياجا عظيما

ولما جلست طلبت منهم ورقا بنغمة متسلطة لمشاهدتى منهم الميل والمحبة الشديدة نحوى على انه لم يسبق لى كتابة تعاويذ لحد الآن ثم أحضروا لورقة كبيرة نظهر انه كان ملفوفا فيها بعض أجزاء من العطارة وقدموا الى قلما ودواة فكنت وأنا فى غاية الرزانة والوقار اسود فى الورقة وا كتب بسرعة

كلمات بحروف متفرقة التى لو جمعت جميعها لا تجدها محتوية الاعلى اسم الله وسيدنا محمد والامام على والحسن والحسين وأسماء جميع الائمة مرسومين بالاختلاف وكنت أضيف عليها اعدادا بدلا عن الاحرف فى المواضع ثم ناولتها بكل احترام للحكيم فدعا بماء ووعاء لغسل الكتابة التى فى الورقة وكان جميع الحاضرين يدعون الله بتأثير هذه الكتابة الشريفة وحصول الشفاء منها وبعد غسلها قال ليشرب المريض منها على بركة النبى عليه السلام حتى اذا كان له أجل فيشفى ببركة هذه الاسماء الشريفة التى سيشرب بها وان كان قصير الاجل فلا تفيد حذاقتى بشئ ولا ينفعه أى انسان بأدنى فائدة ثم نقطوا للمريض الماء فى فمه وكل انسان شاخص لنحافته وسقم وجهه متعشمين فى انتعاشه واعادته للحياة بعد ان مكث مدة بدون ان يتحرك كانه يئس من نفسه

وما ندرى بعد برهة الا والمريض نعر ورفع رأسه على ذراعه فاندهش الحاضرون والحكيم أيضا وكنت أنا بالاخص فى غاية العجب ثم فتح عينيه وطلب طشطا واستفرغ فيه بهيئة يظهر منها ان ذلك من تأثير أدوية ابن سينا نفسه وبالاختصار حصل له الشفاء

ولكن على مقتضى فهمى نسبت بوقتها ان التغيير الحسن الذى حصل هو من تأثير البهارات التى كانت فى الورقة وآثار الحبر نتج منها الحالة التى ذكرتها واجتهدت بالاثبات للحاضرين ان تمام الشفاء حصل بواسطتى وبسبب كتابتى الشريفة التى كتبتها ولولاى لمات ومن جهة أخرى فالحكيم أورى أحقيته وانه السبب فى شفائه لانه بمجرد المريض ما فتح عينيه صاح الحكيم قائلا ألم أقل لكم ذلك وان هذا تأثير أدويتى ولولا حضورى لمات العطار أمامكم

فلما سمعت كلامه أوقفته وقلت اذا كنت حكيما فلماذا لا تداوى مريضك

وتشفيه بدون ان تنادينى فكن فى حالك حيث لم يكن لك دراية الا مسائل المراقات والفصادة فلا تتعرض ثانيا فيما لا يعنيك فاجابنى الحكيم وقال أيها الدرويش المحترم لا أنكر ما أنت عليه من الجانب العظيم من كتابة التمائم وبيعها بثمن غال ولكن كل انسان يعرف من هم الدراويش ومابنوا عليه من التحيلات ولو فرضنا حصول الثمرة من أعمالهم الروحانية فلا ننسبها انها كرامة منهم فلما سمع الدرويش كلامه غضب غضبا شديدا وطار الشرار من عينيه وقال للحكيم يا ابن الكلب أتتكلم معى بعد هذا كله ألم تعلم انى كنت خادما النبى وأما أنتم يا حكماء فجهلكم يضرب به المثل فى نسبته للقضاء والقدر وذلك اذا تصادف وشفى بواسطتكم مريض تنسبون أحقية الشفاء لكم واذا مات تقولون هذا قضاء الله وان مساعى المخلوق لا تفيد شيأ فاخرج من هنا (قم واخرج يا جاهل) ومر على المريض الثانى الذى تعوده ومتى ازداد خطره فادعنى ثانيا وأنا أتمم لك جهلك الردىء وأشفيه لك كما داويت العطار الآن فاجاب الحكيم وحياة رأسى وأنت لها الفداء انى لست من الرجال الذين يسمعون ويقبلون مثل هذه الالفاظ من درويش أقل درجة من الكلب ثم قام نحوى يريد بطشى بقوة تهديدية وهو يقذفنى بكل ما يقدر عليه من المسبات فقابلته بكل احتقار وتسابقت نحوه حتى آل الامر للكم بعضنا بعضا ومسك شعر رأسى وقبضت أنا الآخر على لحيته وصرنا نطعن بعضنا بالضرب واللكم ومازلنا كذلك نتضارب ونتصادم بحالة وحشية ونتقاتل بدون اكتراث بالمريض وصاح النساء وعلا صراخهن حتى كاد أمرنا ينتهى لاسوأ حالة لولا هجوم احدى النساء علينا قد اشتد بها الغضب وأكدت لنا ان ضباط الدروجاس (المستحفظين) يقرعون الباب ويسألون عن السبب الناشئ منه هذا الصياح والانزعاج الشديد

فعلى ذلك انفصلنا وانسربت لميل الحاضرين جهتى وأظهروا احتقارهم

وعدم اعتنائهم بمهارة الحكيم الذى غرضه الاصلى الحصول على الدراهم بدون فكره فى مداواة مرضاه أما أنا فكالفوار ونى أمامهم بهيئة تقى عليه نور الهى واعتقدوا ان بمبرد كتابتى عادت قوته وشفى من جميع أمراضه

فلما رأى الحكيم ما أصابه من اللوم والتنديد سحب نفسه للخارج وهو ذليل ومكسور الخاطر ولكن قبل خروجه طأطأ على الارض وجمع جملة من شعر لحيته المتساقط الذى نتفته منها على قدر ما وجد ومن مكره جمع أيضا جزأ من شعرى مع شعره وهزه بيده فى وجهى وقال انك سترى من هو الجانى والحقوق منا عند وقوفنا باكر أمام القاضى لان الشعرة الواحدة فى طهران تساوى دينارا وانى لمرتاب فيما اذا كانت جميع طلاسمك وغاغتك تساوى هذه القيمة أم لا

(قال الدرويش) فشفى الحكيم غليله وهبط غيظه بهذا الكلام ولربما بالنسبة لشهرته انه لا يتمم شروعه التهديدى فى طلبى أمام القاضى خوفا على شرفه من انتشار هذه المسئلة انما ما زال الرعب يداخلنى خوفا من توجهى للمحكمة لصعوبة هذا الامر فتركته وأنا آمل فى نتيجة العملية التى أجريتها مع المريض وما الفائدة التى سأكتسبها منها

فما مضى النهار حتى شاع ذكرى فى المدينة وقالوا ان العطار (وهو أول من عالجته) الذى كان يكارب شدة الموت عالجه درويش مستجد حضر هذه المدينة بعد ان يئس الناس من حياته وقد انتشر خبرى فى جميع أنحاء المدينة وأصبحت ذو أهمية كبرى عند الاهالى وكنت أكتب التعاويذ من الصباح للمساء وأبيعها للناس بحسب درجاتهم واقتدارهم حتى انه لم يمض قليل من الايام الا واستحوزت على مبلغ جسيم من الدراهم انما من سوء بختى لم أصادف عطارا مريضا ولا قطعة ورق كما سبق فى أثناء هذه الايام فلما

تحققت

تحققت أن معيشتي وشهرتي منسبة عن المعجزة التي أظهرتها مع العطار وان حالتي آخذة في التناقص استحسنت السياحة في داخلية العجم وبوقتها قت وتوجهت الى مدينة طهران وفيها عزمت على الاقامة دوامابعد أن رتبت أشغالي بمهارة تامة حتى أن شهرتي انتشرت فيها قبل وصولي اليها وكان العطار أعطاني شهادة رسمية بختمه ذكر فيها أنه شفي من مرضه بعد اليأس من حياته ببركة تعويذة كتبها بيده فكنت أبرزها لكل انسان أينما أذهب بقصد تأييد حقيقة الاشاعات المنحصرة في كرامتي وها أنا الآن عائش بهذه الشهرة التي تكسبني الدراهم العظيمة بغاية الراحة واني كلما أجد شهرتي أخذت في التنازل أرحل لبلدة أخرى وهذه حكايتي

(قال الحاج بابا) فلما انتهى الدرويش الثاني من تاريخ تقدم الدرويش الثالث لسرد قصته وقال ان حكايتي مختصرة واني كنت في الاصل محدثا ولذا لا تحتاج للتطويل وقال ان والدي كان أستاذا في احدى المدارس وبما رآه من التفاني وشدة قوتي الحافظة أمرني بمطالعة التواريخ التي ازدادت بلغتنا واعادتها عليه فلما رأى ما حازه عقلي من هذا المجموع الكافي ألبسني حلة درويش لسرد الحكايات علنا أمام الجماهير من الناس الذين يجتمعون حولي بقدر ما تقتضيه قصصي ولكن مسعاي الابتدائي لم أنل به نجاحا تاما حيث بعد انتهاء قصصي يتركني السامعون بدون أن يعطوني أدنى مكافأة لاتعابي فسعيت في الحصول على المقصود شيأ فشيأ وذلك بدل عن استمراري في الحكاية لآخرها كما عودت نفسي سابقا فكنت عندما أقترب لحصول نكبة أو مصيبة يتشوق الانسان لسماعها أقطع الكلام وألتفت لمن حولي وأقول لهم يا سادة يا حاضرون اذا كنتم تتصدقون علي بشئ أتمم لكم باقي القصة وبذلك كنت أجمع حفنة عظيمة من الدراهم النحاس اذ كان يندر جمع أقل من ذلك ولافرض مثلا انه عند سياقي في

تاريخ الاميرخاتاى وأميرة سمرقند فعند وصولى لغاية هزارموت الوحش حين يقبض على الامير بفمه ويقترب على ازدراده واستقراره فى فم الوحش بين فكه الاعلى والادنى وجميع الحاضرين يقطعون الامل ويأسون من حياته والاميرة ساجدة على ركبتيها تتضرع الى الله بنجاته وعندما يخفون اتباعه رماحهم وهم فى حالة الذل والانكسار ويرتدون بخيولهم راجعين بحالة الفزع وكذا عند ظهور الرعد الى أن أصل لغاية ما يهمهم الوحش فاقطع الكلام وألتفت لمن حولى وأقول ياسادة يا كرام افتحوا أكياسكم واردفونى باحسانكم حتى تسمعوا ما أجراه الاميرخاتاى من المعجزات والعجائب فى خلاصه وقطع رأس الوحش بنفسه

وبهذه الحرفة كنت أتحايل على معايشى بما أدهش به عقول الناس ولما تنتهى حكاياتى التى أحفظها كنت أنتقل لجهة أخرى وفيها أجدد أشغالى وها أنا على هذه الحالة للآن

﴿الفصل الثانى عشر﴾

﴿فى ان الحاج بابا يجد ان الغش لا يسلم الانسان من عقابه ولو فى الدنيا وفى تبصره فيما يعود عليه بالنفع من أمر مستقبله﴾

(قال الحاج بابا) فلما انتهت الدراويش من مقالاتهم شكرتهم على هذه التسلية بما قدموه لى من النصائح والتعليمات وصممت العزم فى الحال بان أتعلم منهم طريقتهم بقدر امكانى لكى اذا ما اضطرنى الحال على ترك مهنتى الحالية أسلك طريق الدروشة

وقد علمنى الدرويش صفر كافة الحيل والخدائع التى يعرفها والتى اشتغل بها واجتنى ثمارها وعلا بها على جميع العالم حتى اعتقدوا انه من كبار الاولياء العارفين ثم أخذت فى تعلم كتابة التمائم والطلاسم من الدرويش الثانى حتى

أتقنتها وتعلمت من الدرويش المحدث بعض الحكايات والخرافات التي نجح فيها وأعارني بعض كتبه وذكر لي الطرق العمومية التي توجب اندهاش الحاضرين منها حتى يتحيروا فيبذلوا ما في جيوبهم من الدراهم بدون ان يشعروا وذلك لما يعتريهم من الذهول عند سماعها وعلى ذلك استمريت في بيع دخاني ولما كانت مكاسبه عائدة على الدراويش ولم أنتفع بها اضطررت الى زيادة غشه بما أضفته اليه من الذبل والقش وورق الاشجار الناشف حتى قل انبساط الزبائن الآخرين منه

ثم تصادف في مساء يوم من الايام عند الغسق واقتراب انفضاض الاسواق أتتني عجوز طاعنة في السن وعليها ملابس رثة فاوقفتني وسألتني ان أملأ لها شبكا من الدخان وكانت متبرقعة بحيث لم يظهر من وجهها شيء ولم تكلمني بسوى ذلك

فملأت لها شبكا من أردأ الدخان المغشوش فلما تناولته وتعاطت منه نفسا بصقت وكحت وما أدري الا وصاحت صيحة مزعجة فاتى ستة من العساكر وبيد كل واحد نبلة مفتولة وقبضوا على وطرحوني أرضا وقد أزالت المرأة البرقع عن وجهها فاذا به محتسب المدينة وقال لي يا أقل أهل اصبهان هاقد ضبطتك فانت الذي من زمن طويل تسم أهالي مشهد بتبغك المغشوش فلتقبض الآن زخماتنا بعة بعدد ما قبضته من الشاهي (وهي نقود كل واحد منها يساوي تقريبا اثنين شلن انكليزيا) ثم قال لرجاله احضروا الفلقة ومدوه فيها واضربوه حتى تطير أظافر أصابع رجليه فما أتم كلامه الا وأدخلوا أرجلي في العقدة ورأيت السياط تتبادل على أقدامي ولم يزالوا يضربونني ضربا مؤلما حتى غبت عن الوجود وصار الضياء في وجهي ظلاما وتصور لي أمامي عشرة آلاف محتسب في زي عشرة آلاف امرأة عجوز وصرت مثلة بين الناس وكلهم يضحكون من تقلبي على الجانبين ويتشفون

فی توأنا أستغیث برأفة معذبی وأقسم علیه بحیاة أبیه وأمه وبجده ورأسه وولده وأمیره وأستغیث بالنبی علیه السلام والامام علی وبجمیع الائمة وأنا ألعن الشیخ وبیعه وألوذ بمن حولی من المشاورین وبالثلاثة الدراویش الواقفین بدون أن یظهروا أدنی حركة لانقاذی فما أغاثنی أحد منهم واستمریت فی الصیاح والصراخ والبلاء حتی ذهل عقلی وفقدت حاستی ولم أشعر بألم السوط

فلما أفقت وجدت نفسی مرمیا وراسی متكئة علی حائط فی الطریق والناس مزدحمون یتأملون لسوء حالتی ومافیهم من یشفق علی وقد سلب منی شبكاتی وكوزی وجمیع ماأملكه وتركونی أزحف الی بیتی علی قدر امكانی والحمد لله لم أمكث غیر قلیل وأنا أزحف علی ركبتی حتی وصلت الی منزلی لقربه من تلك الجهة وأنا أصعد زفیرا یفتت الاكباد

وبعد ان أقمت یوما فی المنزل أقاسی شدة الالم وأليم العذاب من تورم أقدامی وانشقاق لحمها وتجمد الدم علیها زارنی أحد الدراویش واعتذر لعدم مساعدته خوفا من القبض علیه وظنهم انه شریكی فیعاملوه مثلی عند ما یتشفع لی وقال انه سبق له مثل هذه الواقعة فی مبدا سلوكه وانه یعرف الدواء الذی تداوی به فاحضره ودهن أقدامی وسقانی حتی شفیت فی مدة قصیرة وعدت الی حالتی الاصلیة

وفی أثناء اعتكافی للمعالجة كنت أتدبر فی أمری فعزمت علی قیامی من مدینة مشهد لانی رأیت أنی دخلتها فی ساعة منحوسة حیث أول مرة انكسر ظهری وثانی مرة ضربت بالسیاط وعلی ذلك جمعت ماعندی من الدراهم التی كنت أخفیتها فی أحد أركان غرفتی بكل احتراس ووجدت انها تكفینی للتوجه الی طهران فعزمت علی مفارقتها مع قافلة مستعدة للرحیل وقد عرضت مسئلتی هذه علی الدراویش فاطبقوا علیها وزیادة علی ذلك

فالدرویش

فالدرويش صفر طلب مني أن يرافقني في السفر وقال لي السبب في ذلك هو اني أخبرت ان مشايخ مشهد لحقتهم الغيرة مني وهم يدبرون حيلة لهلاكي نظراً لازدياد تسلطي عليهم بجهلهم ولعدم قدرتي على مقاومتهم سأبحث على معيشة في جهة أخرى فاستقر رأينا على تبديل ملابسي بملابس درويش وبعد ان اشتريت قاووقاً ومنطقة وجميع ما يلزم استعديت للسفر بمجرد الاشارة ولما ضجرنا من الاقامة ونحن في انتظار قيام احدى القوافل اتفقنا على أن نسلك الطريق بدون رفيق وان بدر اهمنا نستدل على الطريق وتزيل ما به من الخطرات الا اننا قبل القيام عزمنا ان نتفاءل من كتاب الشيخ السعدي فدعا الدرويش صفر بالدعوات اللازمة وفتح الكتاب وقرأ ما معناه (ان من المضاد للعقل اتخاذ الدواء بدون احتياط والسفر في طريق مجهول بدون مصاحبة احدى القوافل) فلما سمعنا هذه النصيحة سكن عقلنا وقلنا البتة من انتظار قافلة نقوم معها

وبينما أسأل من كل طرف عن قيام القافلة سررت بمقابلتي مع الشيخ على قاتر المكاري وكان حضوره الى مشهد ليقاول على مشال بضاعة مع أحد التجار لنقل جلود شياه بخاري الى العاصمة وبمجرد ما نظرني صاح صيحة الفرح بملاقاتي وملأ لي شيشته وناولني اياها وبعد ان قصصت عليه جميع مخاطراتي من وقت افتراقنا للآن أخبرني الآخر رحلته ثم قدامه قافلة الى اصبهان وكانت بغاله حضرت محملا بعضها بغرائر مملوءة من الفضة وبعضها محمل بجلود الشياه ومازلنا سائرين ونحن نتحامى الخوف والفزع الشديد خشية من غارات التركمان علينا حتى وصلنا الى اصبهان سالمين فلما دخلت المدينة وجدتها مملوءة من الفزع والرعب بما لحقهم من هجوم التركمان الاخير من سرقة الخان آنفاً وانهم مازالوا الحد الآن متوجسين منهم خيفة ويعتقدون ان الاشقياء هجموا على المدينة بنحو ألف نفر وان الاهالي

قاومتهم ببأس شديد وعلى اثر ذلك كربلى حسن المزين (وهو والدى) جرح بيده أحد رؤسائهم جرحا بليغا لم يتمكن منه الى الفرار الا بمشقة شديدة فلما سمعت ذلك تكتمت هذه المخاطرة عن كل انسان وخشيت من ظهور علامات تبدو على وجهى للمكارى وعند ذكر هذه الواقعة التى حصلت كنت أصعد بخارا عظيما من الدخان ليكون ساترا بين عينه ووجهى كى لا يطلع على تلك العلامات

وقد حمل المكارى بغاله من اصبهان بالاقمشة القطن والتبغ والنحاس برسم (مدينة يزد) ولما وصلها لم تمض مدة وجيزة حتى استعدت قافلة للقيام الى مشهد فقام معها وحمل بغاله باصناف من بضائع تلك المدينة واتفق على قاتر على انه من بعد توجهنا الى مشهد يصاحبنا الى طهران بشرط اذا حصل لنا تعب من المسير فهو بكل ممنونية يأذن لى وللدرويش صفر بالركوب على بغاله

﴿الفصل الثالث عشر﴾

(فى قيام الحاج بابا من مشهد وشفائه من الجبر الذى أصابه بظهره وروايته حكاية)

(قال الحاج بابا) ولما خرجت من مدينة مشهد واعتدلت الى الطريق الموصل الى طهران قبضت على قبة ردائى وهززتها كأنى كنت فى حبس وخرجت منه وصحت فى نفسى قائلا اللهم أنزل المصائب والسخط على هذه المدينة لانه لو سمع بى الحجاج العائدون فى هذا الوقت من الحج ربما كان يتأتى لى ضرر من جهتهم ولكون الدرويش صفر كان يرى مثل رأيى طابق على جميع أفكارى وكلانا كنا نهون على أنفسنا ونتشفى بالحديث ضد سكان تلك المدينة فكنت أتشفى بالنسبة لما لحقنى من الضرب والاهانة

وأما هو فبالنسبة للاضطرارات التى كابدها من الفقهاء ثم أخذ الدرويش يهدى روعى ويقول أما من جهتك أنت لا زلت شابا ويلزمك مقاساة صعوبات شديدة قبل أن تكتسب المهارة اللازمة لتدربك فى أحوال معيشتك مدة حياتك فلا تضجر ولا تشتكى من أول مصيبة ولعلها تكون سببا فى موعظتك فى المستقبل فتنجو بها مما عساه أن يحصل من المصائب ولتكون متيقظا دفعة أخرى فى استكشاف الامور مثل المحتسب الذى غاب عنك حاله لما كان متسترقعا بزى امرأة ثم قبض الدرويش على لحيته وقال اما بالنسبة لرجل مثلى فى هذا السن كابد جملة مشقات فى الدنيا يجبر على السفر ثانيا فى الجهات فانها حقيقة من المصائب العظمى

فاجبته ربما كان الاحسن بقاءك فى مشهد اذا كنت اخترتها للاقامة من بين البلاد لو احسنك ولكن لو كنت مواظبا على فرائض الصلاة والوضوء لا تحدث مع المشايخ والتجأت اليهم

فقال الدرويش حقا ما قلته ولكن السبب فى ذلك هو انه لمناسبة اقتراب حلول شهر رمضان المعظم الذى فيه يراقبونى أغلب الاوقات زيادة عن خلافه ولا لى قدرة ولا رغبة للصيام لان تعاطى الدخان من الضرورى وهو عندى بمنزلة الهواء للجسم وشرب الخمر قوتى اليومى فلذا استحسنت السفر مدة هذا الشهر نظرا للانهماك المسموح به للسياحين أثناء سفرهم

وان كان يحتمل جواز غشهم كما سبق لى المرار بالاكل والتدخين خفية ولكن بالنسبة لرجل مشهور الآن مثلى يعيش بالتقوى والطهارة المظنونة الظاهرة بين الناس ويضيقون عليه بالمراقبة فلذلك لا أتمكن من اطلاق حريتى

(قال الحاج بابا) وبينما نحن نقطع الطريق بالحديث اذ وصلنا الى مدينة سمنان ولم يحصل لنا فى الطريق شئ يستحق الذكر الا انه من قبل أن نصلها

بيوم أو يومين ساعدت على قاترفى تحميل احدى البغال وفى حال التحميل عاد الى ألم ظهرى الاصلى فاشتد على فى الطريق حتى لم يكن لى قدرة على المسير مع القافلة فعزمت على المكث فى هذه الجهة لحين شفائى وبالاخص قد نجينا من غوائل التركمان ولم يكن أمامى صعوبات فلهذا قصدت الاستقلال بنفسى وأن لا أرتكن على المسير مع أى قافلة

اما الدرويش صفر المغرم بشرب الخمر والشهوات النفسانية التى هى عنده من أعظم شئ داخل المدينة استمر فى سياحته وأما أنا فلم أدخلها بل اتخذت مسكنا فى احد القبور الموجودة على اكام المدينة وألقيت فروتى فى احدى زواياه وأعلنت عن حضورى على حسب عادة الدراويش الرحالة ونفخت فى نفيرى وصحت صيحة عظيمة بصوت مطرب ومقبول قائلا (حق هو الله أكبر)

ثم حممت رأيى باظهار الهيبة والتكرش على وجهى وعدم اللين حتى بذلك أكون أديت واجبات التعلمات التى تلقيتها فى فنون الغش فأنت لزيارتى النساء العديدة وكتبت لهن جملة طلاسم وتعاويذ وصرن يهدين لى نظير ذلك بالفاكهة واللبن والعسل وبعض أشياء

وقد اشتد فى هذه الاثناء ألم ظهرى حتى انى سألت عما اذا كان يوجد أحد من أهالى سمنان يمكنه معالجتى من هذا الالم فلم أجد فيها الا حلاقا وبيطارا يدعيان معرفة مداواة أى مرض فالحلاق ماهر فى الفصادة وخلع الاسنان وتجبير العظام وأما البيطار فلمعرفته فى أمراض الحيوانات فكان فى غالب الاحيان يدعى لمعالجة الامراض البشرية ووجدت أيضا امرأة عجوزا سائلة الشعور الشائبة على ظهرها وكهيئة الساحرة قد أنهكها الكبر وكانت الاهالى تعتقد صلاحها ويصدقونها فى جميع الاحوال وان معلومات الحلاق والبيطار لم تذكر فى جانب معلوماتها اذ هى عندهم كالوحى وبخلاف

ماهي عليه من معرفة المعالجات السرية ووصف الادوية فكانت تدعي معرفة جميع أنواع الآلام

فحضر كل منهم وزارني الواحد بعد الآخر واتفق رأيهم جميعا ان الالم الحاصل لي ناشئ من تأثير البرد وما يعرفونه فهو النار التي هي أشد قوة طاردة للبرد وعلى ذلك أجمعوا آراءهم باتفاق انه لابد من سرعة استعمال الكي في محل الالم ولكون البيطار أغلب اشتغالاته هي في الحديد الحامي والبارد فلمعلوميته بذلك قرر رأيهم بانه يكون الجراح في عملية الكي

فاطاع الامر وأحضر مجمرة مملوءة فحما وسفافيد صغيرة وجلس في زاوية وأولع النار ووضع عليها السفافيد لاحمائها ولما احمرت السفافيد طرحوني على الارض على وجهي ممددا وكووا ظهري باحتفال عظيم بالحديد المحمي وصار الواقفون كلما وضع السفود على محل يصيحون ويتضرعون بقولهم (خدا شفا مدهد) يعني الله يشفيه أما الذين كانوا متولين معالجتي فبدون أن يصلوا على النبي عليه السلام أو على الائمة الاثني عشر كووني في ثلاثة عشر موضعا حتى انه في منتصف العملية لما تزايد بي الالم واشتد بي الحال وصرت أصرخ بقوة شديدة وأستغيث من العذاب لم يتركوني حتى انتهى الكي عن آخره

ولما استمرت الجروح تؤلمني زمنا طويلا بدون ان تلتئم وانا اقاسي شدة الالم بعقلي أن شفائي لايكون الا باعتكافي أياما في غرفتي فمكثت فيها مدة أيام طوال بدون ان أبرح منها لحظة وفي آخر هذه المدة التأم جرح نخاعي وزالت أوجاعي وعادت القوة في جميع أعصابي فحمدت الله وشكرته على ما أولاني

(قال) وان كان المعلوم ان شفائي منسوب للثلاثة عشر كيا التي هي أصل العملية وزاد اعتقاد جميع أهل المدينة في تأثير الحديد المحمي زيادة عما

كانوا يعتقدون ولكني لازلت افكر ان أسباب شفائي ناشئة بالاكثر من راحتي زمانا طويلا وكانت هذه الطبيب الوحيد لمداواتي فتمكنت هذا الرأي في نفسي لان الاهالي عموما كانت تعتقد بلا ريب أني كنت محفوظا بالاولياء والاتقياء وانهم الواسطة في شفائي

ثم عزمت على الرحيل في الوقت الى طهران ولكن قبل قيامي تجاسرت ان أظهر نفسي في هذه الساحة بهيئة الدرويش واجتهدت في تجربة قريحتي لسرد حكاية في مجمع من أهالي سمنان وعلى ذلك مشيت الى جهة مدخل المدينة ووقفت في ميدان متسع بقرب من الاسواق يجتمع فيه كسالى البلد وقت الظهر وصحت بالصيحات العادية لمثل ذلك فازدحم الناس حولي في وقت يسير واحاطوا بي على شكل حلقة وجلسوا على الارض ليسمعوا روايتي المشتملة على حكاية حلاق سمعتها لما كنت في هذه الحرفة ومن حسن حظي أنت بفكري في هذا الوقت ثم وقفت في وسط حلقة هؤلاء الهمج وهم يرمقون الي بالاعين ويفتحون أفواههم وابتدأت بما هو آت

(حكي) انه كان موجودا ببغداد في زمن الخليفة هرون الرشيد حلاق اسمه علي سقال ماهر مشهور في خفة يده في هذه الصناعة حتى قيل انه يحلق الرأس ويساوي الشارب واللحية وعيناه مقفولتان بدون أن يجرح الجلد أو تنزل نقطة دم ولم يبق رجل ببغداد بهذه الحالة الا وحلق عنده فلما تكاثرت عليه الناس ورأى ماهو عليه من الشهرة بخلاف ما استحوز عليه من الاموال العظيمة تكبر وتغطرس وكاد ان لا يحلق رأسا مالم يكن صاحبها بيكا أو آغا

ولكون حطب الحريق غاليا ونادر الوجود في بغداد وكانه تحرق مبلغا وافرا منه فكانت الحطابة تجلب أحمال الحطب اليه أولا لوثوقهم ببيعه بالنقد حالا في أغلب الاحيان وقد تصادف ذات يوم ان أحد الحطابة

المساكين مستجد فى هذه الحرفة وكان يجهل خصال على سقال فذهب بحمله الى دكانه وقدم له الحطب الذى احتطبه من مسافة بعيدة من الريف على حماره فقطع معه الحلاق الثمن وقال له ان الانفصال على جميع المحمل على الحمار فقبل الحطاب ذلك والقى الحمل من فوق حماره وطلب الثمن فاجابه الحلاق ان الاتفاق كان على جميع الحمل فيلزمنى ان آخذ غبيط حمارك الذى أغلبه من الحطب حسب اتفاقنا فقال الحطاب كيف وقد أخذه الاندهاش الكلى انى لم أسمع ولا خلافى بسواقك هذا مطلقا ويستحيل اجابة طلبك

وبالاختصار بعد حصول مناقشات جسيمة ونزاع مهول قبض الحلاق على الغبيط والحطب وكل شئ وطرد الفلاح المسكين وهو فى غاية الضيق والكرب فتوجه لوقته الى القاضى وبث له مصائبه ولكون القاضى من زباين الحلاق فلم يصغ لدعوته فتوجه لحاكم أعلى منه وشكاله فعضد أيضا على سقال وطابق على الدعوة فالتزم بالعرض على المفتى نفسه فبعد أن أمعن وتأمل فى المسئلة انتهت أخيرا بقوله ان هذه القضية يصعب عليه جدا الحكم فيها لعدم وجود نص لها فى القرآن الشريف ولذلك أخبره باستحسان صرف النظر عن هذه القضية

فلما سمع الحطاب كلام المفتى لم يدخله الخوف بل شد عزمه وخرج مسرعا لساعته وأحضر كاتبا وكتب له عرضحالا يتظلم فيه ويبث دعواه للخليفة نفسه وأعرضه اليه فى الطريق يوم الجمعة حال ذهابه الى الجامع وكان الخليفة مشهورا بالرأفة والحلم وطول البال فى قراءة العرضحالات ولم يمر زمن طويل الا واستدعى الحطاب بالحضور أمامه فلما اقترب من الخليفة جثا على ركبتيه وقبل الارض بين يديه ثم وقف امامه واضعا يديه بالطول على جانبيه مسبولا عليهما أكمامهما لاصقا قدميه بعضهما ببعض منتظرا

ما يصدر به الحكم فى ظلامته

فقال له الخليفة أيها الرجل ان كلام الحلاق فى محله بالنسبة لنفسه واما أنت فبيدك الحق فى دعواك ولكن الشرع لا يحكم الا بالالفاظ وان الشروط تثبت بمجرد الكلام ولابد من أن الشرع يجرى مجراه والا فيبطل وعلى ذلك يلزم تأييد الشروط والا فيضيع الصدق والايمان بين الرجل وأخيه وبناء على هذا كله فالحلاق الحق فى حفظ جميع الحطب ولكن سأنظر فى أمرك ثم قربه اليه وساروه فى اذنه بكلام لا يسمعه خلافه وأمره بالخروج فخرج وهو مسرور الخاطر

(قال الحاج بابا) فلما وصلت الى هنا قطعت الكلام وأخرجت وعاء من الصفيح وأمسكته بيدى ومددته وقلت الآن (أيها السادة الكرام) اذا أعطيتمونى شيأ من الاحسان فاقص عليكم ما قاله الخليفة للحطاب فهاجت الناس وتعجبت وتشوقت لسماع باقى الحكاية فصار وا يعطونى قطعا من النقود ولم يتأخر منهم الا النذر القليل فجمعت الدراهم ووضعتها فى جيبى وقلت (اسمعوا يا أسيادى)

وبعد ان سارر الخليفة الحطاب بما يجرى به لحصوله على ترضيته من الحلاق فسأخبركم بما حصل له وهو ان الحطاب قبل الارض بين يديه وعاد لحماره وجره من مجره وتوجه لحال سبيله قاصدا بلده وبعد مضى بضعة أيام عاد الفلاح الى الحلاق ومعه حماره وتداول معه كانه لم يكن فى النفس شئ مما سبق وترجاه وقال له انه حضر مع أحد أصحابه من البلد وكلاهما راغب التمتع بما اشتهر به من مهارة يده فى هذه الصنعة فلما اتفق معه على اجرة الحلاقة اليهما حلق للحطاب ثم قال له وأين رفيقك فأجابه أنه واقف فى الخارج وسيحضر حالا الا ماسك ثم خرج وعاد يجر الحمار خلفه وقال له الحطاب ها هو رفيقى فالبتة من ان تحلق له فصاح الحلاق وقد أخذ منه

العجب كل ما أخذ وقال كيف أحلق للحمار أما كفى بأنى رضيت بأن أدنى نفسى بلسك وهل تشتمنى وتستهزئ بى بسؤالك حلاقة حمارك خذه واذهب من ههنا والا أرسلك معه الى جهنم وأسرع الحلاق بطرده مع حماره من الدكان فتوجه الحطاب فى الحال للخليفة بعد ان ربط حماره فى جهة واستأذن فى الدخول عليه فأذن له بالحضور فلما امتثل فى حضرته عرض للخليفة حكايته

فعجب الامر أمير المؤمنين ونادى لاحد قواده وأمره باحضار على سقال الحلاق ومعه عدة أمواسه فى الحال فما مر عشرة دقائق حتى احضروا الحلاق وأوقفوه امامه

فقال له أمير المؤمنين لماذا لا تحلق لرفيق هذا الرجل حسب الشروط التى بينكما فقبل الارض بين يديه وقال حقا يا أمير المؤمنين قد اشترطنا ذلك ولكن من يدعى فى المدة السابقة بمرافقة الحمار أو من اتخذ من المتقدمين الحمار صديقا فاجابه الخليفة قد صدقت فى المقال ولكن هل يظن ان الانسان يصمم رأيه بأخذ غبيط الحمار لاحتوائها على الحطب ضمن حمله فارجع عما أنت عليه الآن فالحق بيد الحطاب ولا بد أن تحلق للحمار والا فسترى ما يأتيك من المضار

فاجبر الحلاق رغم أنفه بطاعة أمر الخليفة وأخذ يجهز الصابون لتلييف وغسيل الحمار من رأسه لاقدامه ليحلق له امام الخليفة وجميع معيته وكان الحاضرون يزدرون به ويسخرون عليه بالضحك ومعايرته على حلق الحمار وبعد ان انتهى الحلاق أمر الخليفة بانصراف الحطاب مع حماره بعد ان أحسن عليه بمبلغ معلوم من الدراهم وصارت أهل بغداد تتحدث بهذه الحكاية على ممر الدهور وتترنم بما كان من عدل أمير المؤمنين

﴿الفصل الرابع عشر﴾

﴿فى الكلام على الرجل الذى يقابله الحاج بابا فى الطريق ونتيجة الملاقاة﴾

(قال الحاج بابا) ثم انى قمت من مصنان مشروح القلب والصدر بارئا من السقام وآلام الظهر وكنت وقتئذ شابا جميل المنظر وكان باقيا فى كيسى عشرون توما نا من الذهب وذلك مقدار ما توفر عندى فى مدينة مشهد لما اقتصدت فى المصروف كما علمتنى تجارب الزمان وعزمت على انى فى حال وصولى طهران أخلع سبحة الدراويش عنى وألبس لبسا نظيفا من الرأس للقدم واجتهد بواسطة بذل أموالى فى الحصول على درجة احسن مما كنت فيها التعيش منها ولكن قبل ان أصل الى طهران بمسافة يوم تقريبا وأنا سائر فى الطريق أترنم وأغنى بقدر ما عكنى من علو صوتى بابيات غزلية عن ليلى والمجنون اذ فاجئنى رسول وأتى نحوى وبعد ان تحدث معى قليلا عزم على بان آكل معه من بعض مأكولات استحضرها صحبته ولكون حرارة الشمس تسلطت بقوة على جسمى فلم احتى قبلت عزومته بكل ممنونية وجلسنا بجانب نهر صغير بجوار غيط مزدرع بالحبوب وأخرج الرسول اللجام من فم حصانه وأشار اليه بالاكل من الغلال المغروسة ثم أخرج من جيب خرجه منديلا كبيرا ملفوفا به جملة قطع من الارز المفلفل البارد وثلاثة أو أربعة لفات من الخبز ونشره أمامنا وسكب أيضا من كيس كان معلقا على قصعة سرجه فى وعاء جزأ من اللبن الرائب وأخرج من عين الخرج الموضوع فيها نعاله ومؤنة التبغ وكأسا للشرب ستة بصلات ناشفة وأضافها على المائدة وأكلنا بكل اشتهاء ولذة حتى انتهى الطعام من قدامنا بغاية السرعة فصرنا نلعق أصابعنا نفكها آسفين على انتهائه

ثم قمنا وغسلنا الاوعية من النهر ومكث كل منا يتفكر فى سؤال رفيقه عن موضوع سفريته المنوط بها وكان رأى من هيئة ملبوسى أنى درويش فقصصت عليه حكايتى أولا وآماهو فاخبرانه من ضمن نجاب محافظ مدينة استراباد ولزيادة سرورى وتعجبى كان حاملا الخبر السار باطلاق سبيل صاحبى الاول الشيخ عسكر شاعر الشاه من أسر التركمان ولكننى لم أظهر للرسول معلوميتى وفرحى بهذه الرسالة لان التجارب علمتنى ان من الحكمة التمسك بنصيحة الغير فى الاحوال المختصة بالمعيشة ولذلك تجهلت هذه المسئلة وتنكرت معرفتى بوجود مثل هذا الرجل وقد أخبرنى هذا الرفيق انه اجتهد فى مجيئه الى استراباد بكل آمان الا أنه لم يمتلك أدنى شئ وان المحافظ أرسله بهذه الرسالة ليبشر عائلته بسلامته ويخبرهم بمستقره وأخرج الجوابات الموكل بها من صدره ملفوفة فى محرمة لبريهالى ولكونه شابا عيل للوقوف والاستقصاء على كل أمر وان كان لايدرى القراءة فانسر لقابلته مع رجل ذى دراية فى الكتابة والقراءة يوقفه على مكنونات الجوابات فاخذت الجواب الاول وفحصته فوجدته تذكرة من الشاعر الى ملك الملوك مكتوبا باعظم وأتقن الالفاظ الشعرية يذكر فيه ما أصابه من النوائب وأنواع العذاب التى قاساها من ابتداء ماوقع فى ايدى التركمان وقال من ضمنه ان الجوع والظمأ وما كابده من المعاملة الوحشية وشدة العناء لاتساوى ذرة ولاتذكر بجانب حرمانى من تشرفى بجامعة الكرم والجود والحضرة المتلألئة والجوهرة الملوكية ذرة البهاء والافتخار وخلاصة فضل الانام ملك الملوك الاعظم وبما أن أردأ حيوان يدب مسموح له بالتمتع بحرارة الشمس الجليلة فبالمثل هو من أدنى وأقل رعايا الملك يلتمس ولو مرة بالتشمس فى شعاع شمس جنابه الملوكى

ثم انتهى باظهار الخضوع والعبودية ملتمسا من الملك انه يؤمل بان غيابه

هـذه المدة لا يحرمه من تشريفه بظل أسرته وانه متلهف لعودته ثانيا لوظيفته السابقة فى خدمة جلالته وقد ضمن هذا الجواب الكاتب الفاضل والاديب الكامل بقوله

حث المطى الى ذرا شمس العلا * ملك الملوك الاوحد بن الاوحد
أو ما ترى الوزراء فى ايوانه * ضاءت وجوها مثل ضوء الفرقد
ملك اذا عممت ساحة فضله * لغدوت فى ريعان عيش أرغد
أقسمت ما كابدته فى الاسر من * سغب ومن ظما وخطب أنكد
ما كان يبلغ عشر ما قاسيت من * ألم الفراق عن المليك الامجد
تاج الفخار ودرة الملك التى * تعلو النجوم بضوئها المتوقد
من لى بان أحظى بايسر لفتة * منه فاظفر بالرجاء الاسعد
انى على ثقة باحسانانه * وأجلها فى النفس تقبيل اليد
ما صافحت شفة امرئ الا غدى * شرفا تصافحه عين السودد
فعسى المليك يعيدنى لوظيفتى * كرما فالحق فى عداد الاعبد

أما الجواب الثانى فكان بعنوان الصدر الاعظم ووصف هذا الوزير المشهور الهرم سيئ السلوك المشهود له بالوقاحة وعدم الانسانية بانه كوكب سيار ذو ذنب بين النجوم وجعله أيضا الملجأ المعول عليه والذى يتكن اليه فى المملكة ثم عرض له الشاعر حكايته وطلب منه الدخول تحت لوائه وحمايته ليتوسط له عند الملك فى بقاء وظيفته

ثم وجدت جوابا بهذا المضمون تقريبا باسم عدوه القديم وهو الخزندار الاعظم وبحثت فى الجوابات التى برسم عائلته فوجدت خطابا باسم زوجته وآخر باسم خوجة ابنه وجوابا ثالثا برسم وكيل دائرته

أما جواب زوجته فيتكلم فيه عن الترتيبات الداخلية التى فى الاندرون وأراها انه يؤمل منها تدبيرها فى الاكل واللبس وتحفظها على الجوارى

بعناية

بغاية الاعتناء وأمرها أن تتهيأ مع جواريها فى تفصيل ملبوسات اليه لتجرده من جميع الادوات والملبوسات

وأما جواب الخوجه فاوصاه بان يدبر التفاته الكلى نحو أحوال وسلوك ابنه وتعشم بحسن تربيته وتعليمه فنون الادب والانغام والتحيه وانه لا يترك فروض الصلاة ولعله فى هذا الوقت وصل الى الدرجة التى يمكنه فيها أن يركب حصانا وا ستعد فى فنون ضرب الحراب وطلق البندقية مصيبا وهو على آخر سرع من الرماحة

وأما جواب وكيله فذكر له تعليمات عمومية مختصة بمصالح أشغاله وأوصاه بالوفر والتدبير وان يتوجه يومى للصدر الاعظم ويمدحه مدحا زائدا حتى يعليه للسموات السبع ويسعى بكل همة ونشاط لازدياد ثروته وسعادته وأن ياتى باله و يتحفظ بكل دقة على نسائه وعبيده ويمنع زوجته عن الاكثار من التوجه الى الحمام واذا خرجت مع جواريها للنزهة وشم الهواء فلا يتركهن بمفردهن بل يصاحبهن لحين عودتهن من الفسحة

ثم قال له انه يؤمل من حسن التفاته منع النساء المؤامرات الحاملات جراب الحيلة خصوصا اليهود من دخولهن داخل باب حرمه وان تكون الحيطان والاسوار المحيطة بمساكن حرمه حصينة ومتينة وغاية فى الانتظام لكى يمتنعن عن الزحف الى الجيران من سطح المنزل وأمره أيضا بانه لا يسمح الى عبده جوهر الاسود من الآن بالدخول الى الاندرون وانه اذا تبالغ اتحاده مع بعض الجوارى أو مسامرته معهن فيجرى ضربه وضربهن بالكرباج ثم أمره أخيرا باعطاء حامل هذه الرسائل مكافأة عظيمة جزاء حمله هذه البشرى السارة لعائلته

(قال الحاج بابا) وبعد ان قرأت هذه الجوابات ووقفت على ما فيها من المشتملات لففتها كما كانت ووضعت ما كان مختوما عليه فى ملفه المختوم ثم

ناولتها للرسول الذى تعشم انه سينال مبلغا وافرا مكافأة له تطيير حمله أول بشرى مؤذنة بسلامة الشاعر وأخبرنى انه لخوفه من ان يسبقه أحد فكان يسير ليلا ونهارا وقال ان الحصان الذى يركبه الآن ملك لاحد الفلاحين اغتصبه منه أثناء الطريق وترك له حصانه بدلا عنه لضعفه وان الفلاح متتبعه بخلاص حصانه

فبعد ان فرغ الرسول من حديثه غلب عليه التعب بقوة شديدة حتى أخذه النوم واستغرق فيه كل الاستغراق وبمجرد اضطجاعه على الحشيش مكثت أنظر اليه وابتدأت أن أتأمل وأتبصر فى أسهل طريقة للتزود برسالته وهو فى غريق غفلته

ولكونى فى نفس الامر خبيرا بواقعة الشاعر وغير ذلك قد أضاء فكرى بزيادة تحقيقها بهذه الادلة والبراهين فلهذا خولت لى الحق بان أكون أول مبشر بهذه الرسالة وأما الحصان فكما انه يخصه فكذلك يخصنى زيادة عنه لانه لا يملكه سيما وسأكون أول رسول بما ان الفلاح متتبعه الآن بحصانه الاصلى وعلى ذلك فتحت منديل الجوابات الذى مازال فى حضنه وأخذت منه جواب وكيل الشاعر وعلوت الحصان وغمزته فى جانبيه بالمهموز فرمح بى وكاد ان يسبق الهواء حتى انى فى برهة يسيرة قطعت مسافة طويلة تاركا النائم خلفى واجتهدت فى السير بنجاح عظيم قاصد طهران

وبمجرد ما امتطيت الحصان تأملت فى أسهل طريق أسلكه وتدبرت فى أحسن طريقة أتوسط بها الاتصالى بعائلة الشاعر وأثبت فى عقلهم هذا الخبر لكى يصدقونى وأتحصل بذلك على المكافأة التى كانت من نصيب الرسول قبل وصوله لانى حسبت انى أسبقه على الاقل بمسافة يوم بما انه بعد تيقظه من النوم يلزمه السير على قدميه مسافة حتى يتيسر له الحصول على حصان آخر ان لم يتحصل على حصانه الاصلى الذى كان على شك عظيم

من

من حضوره اليه ولو فرض ومشى على قدميه فيلزمه مدة أيام وقل أن يصدقه واحد فى المائة لانه يحتمل ان لا يعيره أحد بهيما ليركوبه عليه هذه المسافة

أما أنا فقصدت بحال وصولى مدينة طهران أبيع الحصان وعدته جميعها على قدر ما يساوى فى المزاد ثم اغير ملابس الدراويش بملبوسات أهل الريف العادية وأرهدل نفسى على هيئة انسان حضر من سفر بعيد وأتوجه لمنزل الشاعر وأقف على الباب وهناك أقص الحكاية باحسن ما يمكننى بعذوبة الالفاظ وطريقة سهلة الفهم وابين لهم معرفتى جيدا ووقوفى على جميع أحواله المختصة به التى بها يصدقونى

﴿الفصل الخامس عشر﴾

﴿فى وصول الحاج بابا مدينة طهران وتوجهه الى منزل الشاعر﴾

فدخلت مدينة طهران عند شروق الشمس من بوابة الشاه عبد العظيم وقت فتحها وفى الحال عرضت حصانى للبيع فى السوق المنصوب يوميا لهذا القصد بعد ان برهنت على جودته وشدة سرعته فى المسير من جنس الرماحة التى حضرت بها من وقت تركى للرسول ولكن اخبرنى دلال الخيل بعد ان كشف عليه جليا انه مملوء من العيوب الكثيرة وبذلك قلت فى ضميرى أكون سعيدا لو أتحصل على أى قيمة يباع بها

وكان محجلا من أحد ساقيه وذا اشارة بيضاء على انفه وكلاهما مكروه ومبخوس القيمة عند الاعاجم سيما وكان طاعنا فى السن أسود الاسنان وقد ظهر بالاختصار ان كل صفة موصوف بها لا يلزم وجودها فى الخيل ولذا دهشت عند تقديمه لى خمسة طومان قيمة ثمنه بشرط ان أترك اللجام

والسرج ضمن المسواق وقد أخـذه العجب أيضا لاطاعتى له من أول كلمة وقبول ماقدمه فدفع لى نصف القيمة نقدا واعطانى حمارا أهلكه الجوع قيمة النصف الباقى فرفضت هذا الطلب فوعدنى بدفعه نقدا عند المقابلة ثانيا وبما انى كنت فى غاية من العجلة الزائدة التى لا تبيح لى استمرار المسواق ذهبت عاجلا الى السوق واشتريت قاووقا اسود وخلعت طرطور الدروشة ولبسته فلما هيئت نفسى بهيئة رجل مسافر آت من بلدان بعيدة اعتدلت لطريق المؤدى لمنزل الشاعر حيث وجدته كائنا فى مربع بهيج داخل المدينة وحوله البساتين المملوءة من أشجار الفاكهة وعلى شارع ممتد بجانبه خارج محاط باشجار الشينار من الجهتين الا انه حقيقة يرى على المنزل دلائل الحزن وتحدثه بغيبوبة سيده ولسان حاله يقول

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا * أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وكانت بوابته نصفها مفتوحا ولا ديب يدب حوله ولا صوت آدمى فى حوشه فلما دخلت وسطه لم أر فيه أحدا حتى وقفت بعد التأمل الزائد على قرائن اتضح منها وجود رجل يسكنه فضعف عزمى وقلت ان ذلك اشارة لعدم حصولى على مكافأة موعود بها

فاتجهت أخيرا لمحل عال كائنا فوق البوابة فوجدت فيه رجلا يبلغ من السن خمسين سنة تقريبا جالسا على بساط يشرب فى شيشته فتحققت من هيئته بانه هو نفس الرجل الذى أبحث عنه أى الوكيل فصحت فى الحال بشرى بشرى الخان آت فقال (يكى شاه) الشاه الجديد ماذا تعنى أى خان وأين ومتى فلما بثثت له حالتى وقدمت له رسالتى التى باسمه ففضها وقرأها ووقوفه على ما احتوته وجدته ارتبك فى أمره وذهل عقله وامتزج بالفرح والحزن عماداه وقال لى احقق أنت بحياة الخان فاجبته انى فى غاية التحقيق من ذلك وسيأتيك رسول فى مساء الغد يحدثك بجملة أخبار ويطمنك زيادة

عن سلامته حاملا خطابات للملك والوزراء وغيرهم فلما سمع كلامي وتحقق صدق مقالي صاح صياحات متقطعة وتأوهات متنوعة حتى كاد يلحقه الجنون ويخاطب نفسه ويقول

يا للعجب من هذا الشغل الغريب الذي ما كان يظن حصوله بفكر اللبيب وانها الداهية دهماء أوجبت لنا العار واسقطت على رؤسنا الغبار وسودت منا الوجوه وتعقبتنا بكل مكروه فأين نذهب وماذا نفعل

فلما فرغ من لهجته وفاق نوعا من سكرته اجتهدت في تعقبه بان أسأله عن ايضاحات ما أبداه من الصيحات المزعجة المتسببة من هذه المسئلة ويخبرني عن سبب غضبه ودواعي كربته الظاهرة مع انه كان الواجب في مثل هذه المسئلة اظهار الفرح والسرور رفع هذا كله ما كنت اسمع منه الاقوله لابد وانه توفي كل انسان يقول انه توفي وأن زوجته رأت مناما أنها فقدت ضرسها الكبير الذي كان يؤلمها ويستدل من تفسيره انه توفي وبخلاف ذلك فان الملك قرر رأيه على ذلك فحاشاه أن يكون حيا ولا يتأتى انه على قيد الحياة

فقلت أيها الوكيل لو سلمنا انه مات فلنفرض انه من أهل الكرامة والناس الصالحين وقد حضر ثانيا الى مدينة استراباد من ستة أيام وانه سيثبت حالا ذلك بشخصه باظهار نفسه في طهران اثناء الاسبوع الآتي

وبعد ان مكث الناظر متفكرا ويتعجب هنيهة لهذا الامر قال لي لا تندهش من حيرتي مالم أخبرك عما حدث هنا من النوادر التي أعقبت خبر وفاة سيدي وهو ان أول أمر لما تحقق وفاة سيدي حجز الملك على جميع أمتعته وأمتعته وأمابيته ومافيه من المفروشات والخدم ومن ضمنهم الجواري الجرجانية فأنعم بها على خورعلي ميرزا وهو أصغر أولاد الملك وأما بلده ومافيها من الاطيان الزراعية فامتلكها الوزير الاول وأما وظيفته فعما قريب يتعين

فيها مـيراز فضول والذى هوأعظم من هذا وذالك هوأن زوجتـه تزوجت بخوجة ابنه فأخبرنى الآن بعد ذلك كله أيحق لى أن أندهش أم لا فلما سمعت كلامه وافقته على أحقيته بما وقع منه الا انى سألته بوقتها عما يكون نحو مكافاتى فأجابنى الناظر قائلا (آه) أما من هـذا الخصوص فـلا تنتظر منى شـيأ الا انك لم تأتنى بأخبار سارة ولك ان تطلبها من سـيدى عند حضوره اذا رغبت وأما أنا فلا أعطيك شيأ

فلما كررت عليه اوعدنى بالحضور فى أحد الايام وعلى ذلك تركته غريقا فى تأملاته الخصوصية وخرجت من المنزل لحال سبيلى

﴿الفصل السادس عشر﴾

﴿فى تخيل الحاج بابا على طرائق لمستقبله ووقوعه فى مشاجره﴾

ثم انى عزمت على انتظار وصول الشاعر وان اجتهد بواسطته للحصول على وظيفـة أستخـدم فيها حتى أتكسب مؤنتى بكل شرف وأترقب أى فرصة تكون سببا فى ازدياد معيشتى وان لا أستعمل مسائل الحيـل والغش التى تعودت عليها لما أصابنى من النصب لمراعاة الوضيع والقبيح لانى شاهدت جمـلة أمثال امامى من الرجال الذين اجتهـدوا فى رفع درجاتهـم فى الدنيـا يعلقون آمالهـم بطلب المال والشرف وان منهم من كان مجهول الاصـل مثلى وبوقتها اشـتغل فكرى بشؤون الترقى حتى انه قر بعـقلى حالة سلوكى عندما أبلغ درجة وزير أول

ثم خاطبت نفسى وقلت ومن هو ومن يكون اسمعيـل بك تلى أكبر محبوب وجليس للشاه أليس هو الافراشا وانه ليس أجـل منى ولا متكلما عنى ولو كان هنالك فرصة يمكننى فيها مضاهاة فروسيتنا فى ركوب الخيـل فعلى ظنى

ان الرجل الذى تربى بين التركمان ربه حركات الركوب وكيف تكون حالتها بما هو عليه من الشهرة العظيمة

وكذلك من هو الخزندار الاعظم الذى يملأ خزائن الملك بأنواع الذهب ومن ذا الذى يجهل أصله ونسبه وحرفته فى صغره ماهو الا ابن خضرى وان الخضرى والمزين حالة واحدة بالنسبة لاحوالنا الشخصية بل أنا أحسن منه لمعرفتى بالقراءة والكتابة وأما سعادته كما ينقل عنه لايدرى شيأ من ذلك ويأكل مايشتهى ويلبس كل يوم رداء جديدا وهو الشخص الثانى بعد الشاه يتلذذ بجميع محاسن العجم ومع كل هذا وهذا أسمع جميع الناس تحدث بجهله وعدم معرفته شيأ وانهم يعتقدون انه لايزيد عن (خورى تشديد) حمار كثير النهيق

ومازلت أتلبس بجلباب التخيلات وأجول فى بحار التصورات وأنا متكئ بظهرى على حائط أحد الشوارع المزدحمة الذى يؤدى الى بوابة السراية الملوكية وأشغلت الافكار فى أسباب عظم مستقبلى حتى اذا استفززت للقيام وأردت المشى هجمت فى الزحام وفرقت الجموع بقوة ليخلوا الى الطريق وكنت أتخيل فى نفسى ان هذا أمر يجب عليهم اجراؤه فالبعض نظر لى شذرا والبعض هجانى والبعض ظن أننى مجنون

وحقيقة لما عادلى عقلى وتأملت فى ملابسى الرثة ورأيت ان هيئتى كهيئة السائلين للصدقة لم أملك نفسى من شدة التبسم على تعجبهم وذهولى فذهبت قاصدا سوق الملبوسات عازما على شراء رداء مناسب ليكون ذلك أول خطوة نحو تغيير هيئتى لمعيشة أخرى

وبينما أنا سائر فى الزحام صادفت فى طريق مشاجرة عنيفة بين ثلاثة رجال يسبون بعضهم بالفاظ قبيحة خارقة للعادة فولجت داخل الحلقة المحيطة بهم للفرجة عليهم فلفضيحتى رأيت الرسول الذى غششته وخنته مع الفلاح

يتهجمان على دلال الخيل ووجدتهما متمكنين من اغتصاب الحصان الذي بعته لهو الفلاح يقول هذا حصاني والساعي يقول هذا سرجي ودلال الخيل يصيح و يقول الحصان والسرج تعلق فلما علمت بوقتها ان هذه المسئلة تمسني واني قريب من الوقوع في الخطر وأردت الانسلال من هذه الورطة تحنى الدلال وما أدري الا وقبض على منطقتي وقال هاهو الرجل الذي اشتريت منه الحصان

و بمجرد ما عرفني الرسول ففي الحال انقلبت شدة هياج المشاجرة على مثل الصاعقة حتى كادت رأسي تشق وعادت على حدتها وصعوبتها بالمسبات وما كان يقعقع بآذاني الا بكونهم يلقبوني قائلين يا ابن الزانيا يا ابن الحرام يا حرامي يا غشاش بدون ان تأخذهم في ذلك شفقة فكان الواحد يصيح قائلا أين حصاني والآخر يصرخ بقوله اعطني سرجي والثالث يزرو يصيح قائلا ردلي دراهمي والحلقة تقول ارفعوه للقاضي فصيرت عند ذلك وصرت أردد نظري في الوجود لطلب العفو فلم أجد لنجاتي مخلصا ولا لقوس الرجا منزعا وكنت تارة أصيح وأقسم لهم باني لا أعرفهم وتارة أدافع بقوة عن نفسي وأخرى أتملق اليهم وأريهم اللين والرقة للمسالمة والمصالحة واستمريت على هذا المنوال مدة عشرة دقائق في أول الامر ولم أسمع أحدا الا ويبدي حزنه وأسفه على هذه الحالة فان غضب الرسول كان شديدا ولم يهدأ له خاطر اما الفلاح فكان يبث شكواه مما نزل به من الظلم وعدم الانصاف واما الدلال فكان يدعوني بكل لقب ذميم لسلبي دراهمه فمن تحيري صرت أتحدث مع الاول وأتملق للثاني وألاطفه وأعنف الثالث وأتوعده فكنت أقول للرسول ما هذا الغضب العظيم ان كان لسرجك فها هو سليم ولم يمسه ضرر ولا حاجة لك غير ذلك وأصيح على الفلاح قائلا اقصر لسانك لانك لو وجدت حصانك بالفعل قبيلا لكان لك الحق في الكلام فخذه واذهب لحال سبيلك

واشكر

واشكر الله على وجوده سليما واما الدلال فكنت أسبه واعزره وأشتمه بقدر ما يمكنني بحالة حدة رجل فار بشدة الغضب على حصول غش فى أمتعته وخاطبته قائلا مستهزئا

حقيقة لك الحق فى التكلم بهذه الالفاظ لما حصل لك من الغش مع كونك تعلم لهذه الدقيقة انك لم تدفع لى الا نصف ثمن الحصان وانك كنت تريد ان تخدعنى وتغشنى بحمار مقطوع النفس لا يساوى شيئا قيمة النصف الآخر ثم انى أردت استرداد الدراهم اليه ولكنه أبى ذلك مالم أدفع له قيمة أجرة حفظ الحصان فنشأ من ذلك مشاجرة أخرى فاقت الادلة والبراهين من كل طرف فلم يقتنع أحدهم وبناء على ذلك اتفقنا فى الحال على التوجه الى (الدروجا) أحد ضباط المستحفظين وبث دعوانا امامه فيحكم بيننا ويقطع نزاع المشكل فتوجهنا اليه فوجدناه فى مستقره الكائن فى السوق بين أربعة مفارق وحوله المستحفظون ممسكون شماريخ طوالا مستجهزة للضرب على أول واحد مذنب فتمثلت امامه وقصصت عليه جميع المسئلة ومحتوياتها وكررت مع غاية التوضيح بكل نشاط ما أبداه الدلال من الغش الظاهر للعيان فعند ذلك أجابنى الدلال وأرانى ان مادام الحصان لم يكن ملكا له بل مسروقا من شخص آخر فلا يكون لصاحبه الاصلى الحق فى دفع قيمة حراسته وألزمنى بالاجرة

فلما أعيت هذه القضية الضابط للفصل فيها لاختلاف أقوالنا وعدم مصادقتنا وكان على قرب لاحالتها على ديوان القاضى فاعترضه شيخ هرم كان واقفا بجانبنا وقال ماهذه الاهمية والصعوبات التى تظهرونها فى حل مسئلة سهلة فعندما يدفع الدلال نصف الثمن الباقى فالحاجى حينئذ يدفع أجرة حراسة الحصان المدة التى كان موجودا تحت يد الدلال وبذلك ينتهى الامر فصاح كل من الحضور وقال للشيخ (بارك الله بارك الله) وجميعهم تعجبوا من

عدل الشيخ واستحسنوا حكمه سواء كان حقا أو باطلا وعلى ذلك فض الضابط الجلسة وأمرنا بالذهاب بسلام

فمن وقتها لم أتأخر لحظة في استرداد نصف ثمن الحصان للدلال وتحصلت منه على سند باستلامه جميع المبلغ وذلك بعد ان مكث يتامل في كيفية هذا الحكم المبني على غير وجه حق وظهرت حيرته وارتباكه في السبب الموجب بالزامه بدفع أجرة حراسة الحصان مادام ليس ملكا له سواء كان دفع لي نصف الثمن أو الثمن بتمامه وتحقق غشه في قبول هذا الحكم ومن حسن بختي حول غضبه عني وصار يلوم الضابط وينسبه للخبول وقال ان الانسان الذي لم يكن له معرفة ويتداخل في مسائل الشرع فبالمثل لم يكن له حق في دعواه بالعفة والشرف

((الفصل السابع عشر))

((الحاج بابا يلبس رداء جديدا ويتوجه الحمام ويظهر في كسم جديد))

(قال الحاج بابا) فشكرت الله الآن لخلاصي من هذه المسئلة المذكورة التي جلبتها بنفسي على رأسي وهنيت نفسي على نجاتي بدفع مبلغ يسير ثم عمدت ثانيا الى سوق الملبوسات وتوجهت الى أول دكان في أول البوابة وسألت عن ثمن الجوخ الاحمر لتفصيله باروني (برنسا) مؤملا انه ينقل الى الاعتبار والهيئة التي أراها على الذين يرتدون به فلما نظر التاجر لطلبي وهيئتي قال لي محتقرا أتريد حقيقة اعمال باروني فلمن تشتريه ومن ذا الذي يدفع ثمنه فاجبته تحقق اني اشتريه لنفسي ولبسي

فقال وما الداعي لرجل حقير فقير يريد لبس هذا البرنس فلا يلبسه الا الحائزون لقب مرزا والناس ذوو الوقار والاعتبار وأنا على يقين انك

لست

لست من أحد الفريقين ولا ذاهبته بل من أقل الناس قدرا واحتقارا
فلما أردت الرد عليه بغضب شديد مر بجانبي دلال حامل ملابس مستعملة
من كل نوع ينادي عليها للمبيع ففي الحال دعوته وتركت التاجر ومجادلته
فلما نظرني بهذه الحالة ناداني مرارا فلم أجبه بل تركته يتندم على سرعة
طردي بهذه الكيفية بدون وجه حق وأخذت الدلال وتأخرنا المحل جهة
باب مجاور الجامع وهنالك انزل الدلال حمله ونشر بضاعته امامي فرأيت
فيها عنتري من الحرير مزينا من الامام بشريط من القصب الذهبي
وبالمثل زرائره فقبضت عليه وسألت عن ثمنه فابتدأ الدلال يبالغ ويمدح
في حسنه ويستحسن ذوقي له لانتخابي اياه واقسم لي انه ملك لاحدى جواري
الملك الجرجانية المحبوبة عنده ولم تلبسه الا مرتين فقط
ولما رآني أجربه على نفسي ومقاسي صار يدور حولي ويتأمل لي وهو يصيح
قائلا (ماشاء الله ماشاء الله) انه عظيم الكسم وحسن المنظر عليك فاستحسنت
أخذه لانبساطي منه ومالت نفسي لمشتري طيلسان انلفع به يكون موافقا
للعنتري فاخرج طيلسانا كشميريا قديما عملوا من الخروق والرفي وأكد
لي انه تعلق احدى الستات الموجودات في حريم الملك وقال انه يبيعه لي بثمن
مناسب دون القيمة فغروري أداني الى أن أفضل هذا الطيلسان على الشال
الكرماني الذي اذا كنت أشتريه ربما أدفع فيه قيمة ما أشتري هذا
الكشمير القديم المستعمل ثم صلحته وطويته وأخفيت ما فيه من العيوب
وتمنطقت به على العنتري ووجدت انه لا يحتاج شيا سوى مدية تغرس فيه
وبذا تتم هيئة الملبوس فناولني الدلال مدية ورشقتها في منطقتي
وانبسطت من الدلال لما وجدت نفسي مشحونا بهذه الملبوسات حتى انني
لم يمكني مقاومة اظهار انبساطي ورضائي للدلال وهو بالمثل كان يتأخر
خلفي ويتأمل لي ويؤكد انه لا يوجد في مدينة طهران رجل أجمل وأحسن

مني في اللبس والمكسم
وبعد ان انتهينا من ذلك وعدنا نقطع الثمن وجدت المسئلة في دور جديد وتغيرت لدرجة عالية وذلك ان الدلال ابتدر يؤكد لي عن عفته وشرفه وانه ليس مثل الدلالين الآخرين الذين يطلبون مائة ويرسي طلبهم على خمسين وقال انه اذا تلفظ بكلمة يلزمني ان اعتمد عليها واجعلها عين الحقيقة وبعد ذلك طلب مني خمسة تومان ثمن العنتري وخمسة عشر في الشال وأربعة في المدية والجميع أربعة وعشرون تومانا
فلما سمعت هذا الثمن الغالي منه هبط سروري لانه لم يكن عندي الا عشرون تومانا في جيبي فأردت خلعها واعادة ملابسي القديمة كما كانت فاوقفني الدلال وقال أتظن ان هذه قيمة زائدة فاقسم لك برأسي وحياتك اني اشتريتهم بهذا الثمن ولكن اخبرني عن القيمة التي تريد دفعها فاجبته ان هذا الثمن الغالي لم يخطر ببالي وما اني بفكري ذلك ولكن لو سمحت لي بخمسة تومان في جميعهم فلا باس من مشتراهم
فابى الثمن محتقرا وعلى ذلك قلعت ملابسه ورددت اليه أمتعته فلما جمعها وحملها ورأى ان الانفصال انتهى تقريبا قال اني أراك صديقا لي وأود معاملتك مثل أخي فخذها بعشرة تومان فرفضت طلبه ثانيا ووقفنا نجادل بعضنا حتى اتفقت معه بان أدفع له ستة تومان وتومانا واحدا على سبيل الهدية اليه فاتممت حديثي الا وسمح بالثمن فدفعت له الدراهم وربطت مسواقي وحلته وعزمت بالذهاب أول كل شئ الى الحمام وهناك ألبس ردائي وأنظم نفسي وفي أثناء طريقي اشتريت زوج نعال بكعب عال وقميص ديباج أزرق وسروالين خز قرمزي وربطت الجميع مع بعض في منديلي وتوجهت سريعا الى الحمام
فدخلته بدون أن يشعر بي أحد لان رجلا مثلي رث الهيئة لا يحدث نحوه

أدنى التفات ولا احساس لجهته فسليت نفسي بالتامل في تغيير حالتي حالما ارتدي بملابسي الجديدة فوضعت حقيبتي في احدى زواياه عند رجل وفيها أيضا خلعت ملابسي ولففت جسمي بفوطة ودخلت الحمام حيث داخله لا يعرف فيه الغني من الفقير بل الكل بمنزلة واحدة في الشكل وصرت الآن اتملق لنفسي وأقول ان كسمي اللطيف وصدري العريض والعنتري الضيق المسبول يجعلاني عرضة للغرور والكبر والعجب بنفسي

ثم انني دعوت للمكيساتي وامرته بان يجري ما يلزم لي من عملية التدليك والتكييس المختلف بيده فوق جسمي ويستعمل في المحلات الخشنة الكيس الشعر وأمرته أيضا بحلاقة رأسي وتجهيز الادوات اللازمة لصبغ لحيتي وشواربي وضفائري وبالمثل يدي وباطن أرجلي وليجهز أيضا آلة النتف لازالة ما عندي من الشعر الداخلي وبالاختصار أعلنت ما في عزمي من تحملي مشاق التطهير والتنظيف لآخر درجة وبمجرد ما ابتدأ المكيساتي في التدليك أظهر تعجبه من عرض صدري بصراخه المكرر ولكن لكوني الآن أخذت في أسباب اظهارا لسلطة والهيبة التي ستنشأ من ملبوسي الجديد فسلكت مسلك الذين تعودوا على المدح والالتفات مع هذا الرجل وقال لي انه ما كان يمكنني الحضور في أسعد ساعة مثل هذه الساعة لانه في هذه اللحظة انتهى من خدمة خان أحسن عليه الشاه ببدلة الشرف نظير احضاره اول بطيخة ظهرت باصفهان فارسل الى الحمام بواسطة المنجمين في الوقت المعلوم عندهم بانه اسعد وقت يليق فيه التوشح بالرداء الجديد هذا ولما انتهيت من الاغتسال احضر لي المكيساتي ملايات دافية ولففتها على جسمي ووصلني للمحل الموضوع به ملابسي وبوقت ما فتحت الحقيبة ونظرت لخلعتي وزينتي دخل على السرور والانشراح الزائد الذي اعجز عن وصفهما حيث أصبحت في دور جديد وكلما ألبس شيئا يزداد تغيير شكلي

بالنسبة لحالتي السابقة ومن يوم ما نشأت للآن لم ألبس الحرير الا في هذه الساعة وربطت مروالي الحرير على هيئة رجل متأنق في لبسه وعند سماعي جلجلة العنترى تعلق كنت التفت خلفي بحالة العظمة لانظر من ورائي ولسان حالي يقول

اسيلات ابدان دقاق خصاره * اثيرات ما التفت عليه المآزر

وأما طيلساني فوضعته حول عنقي بغاية الاتقان والظرافة وكان نازلا منه جزء يسير من الامام ومنتشر قليلا على ظهري ولما وضعت المديه في منطقتي ورأيتها تلمع تصورت انه لا يمكن لاحد التزيين مثلي وساويت قة قاووقي على شكل ملوكي ووضعته على رأسي مائلا جدا من جهة على جبهتي ثم ولما أحضر لي الحمامي المرآة لانظر نفسي علامة على دفع الاجرة أخرته حتى أعاين واساوي ضفائري وأبرمها خلف اذني ورفعت شواربي جهة عيني وبعد ذلك دفعت له الاجرة بكل لطافة وانسانية وتركت بدلتي القديمة في حراسته ثم خرجت من الحمام بهيئة رجل من ذوي الاعتبار والمقام

عجفاء مقبلة عجزاء مدبرة * محطوطة جدلا شنباء أنياب

﴿الفصل الثامن عشر﴾

((رجوع الشاعر من الامير الى وطنه وما ناله الحاج بابا من عواقب عودته))

ثم انني سلكت الطريق الموصل الى منزل الشاعر مؤملا استنشاق الاخبار عنه فلمحت في آخر الشارع جملة ناس مزدحمة على بوابته وبوقتها اخبرت انه حضر في هذه اللحظة وطلع من سطح المنزل بدلا عن دخوله من الباب على حسب العادة المعتادة عندهم ان كل رجل تبالغ عنه اثناء سفريته وفاته وعاد سالما لوطنه فانه يدخل البيت من أعلى منزله

فى الحال هجمت بنفسى بين الجوع وتوجهت الى المحل الجالس فيه الشاعر وهنأته بوصوله سالما وانا مظهر له جميع علامات الفرح والسرور والمكلى وبعد ان أوضحت له عن اسمى ومن انا لم يتذكر معرفتى وكاد ان لا يصدق ان واحدا مثلى بحالة النظافة والتأنق وانتظام لبسه يكون نفس الرجل الوسخ الوحشى الرث الذى تعارف معه حالة أسره

وكانت الصالة غاصة بالناس من كل نوع البعض فرحون بسلامته والبعض خاب أملهم ومكدرون ومن ضمنهم مرزا فضول الذى كان تعين فى وظيفته وكان يكثر من التحية والسلام والتملق اليه ولم يسكت عنه لحظة الا و يحييه صائحا بقوله لقد كان محلك خاليا مظلما فأصبح نيرا بتشريفك اياه وقد نورت المكان وكشفت الظلمة عن أعيننا

ومازال على هذا المنوال مدة مكثه لا يقطع الكلام حتى سمعنا أخيرا ضجيجا عظيما ففتحت الابواب واذا بأحد ياوران الشاه حضر وطلب من الشاعر قيامه حالا وتوجهه عند الملك فقام وعليه ملابس السفر ومركوبه وهو مملوء من الغبار وتوجه بالحالة التى كان سائحا بها

فعند ذلك تفرقت الجوع من المكان وخرجت انا من المنزل عازما على العودة ثانى يوم ولكن حال خروجى صادفت الناظر فى طريق الذى كنت تحاورت معه سابقا عن حضور الشاعر وما كان يرى عليه انه من الناس المسرورين بحضوره فقلت له (باسم الله هل تحقق لك صدق مقالى بحياة الخان)

فتنهد من صميم فؤاده وقال لقد صدقت يا حاجى بحياته فاسأل الله أن يبقيه عمرا مديدا والله على كل شئ قدير

و بعد أن صاح بالدعاء من بين ثلاثة تركنى وهو مملوء من الغيظ والخيبة وقد امضيت باقى يومى وانا أجول فى كل جهة وابنى قلاعا فى الهواء ثم تمشيت داخل الاسواق ودخلت الجوامع وحشرت نفسى بين الكسالى الكثيرين

العدد حول السراية الملوكية فوجدت أخبار هذا اليوم مقتصرة على
رجوع الشاعر والحالة التى استقبله بها الشاه فالبعض قال ان الشاه لما بلغه
حضوره أورى استحالته ولم يصدق وقال لابد وانه توفى وأيقن بموته والبعض
أخبر بضد ذلك على أن الشاه أخبر بحضوره وأمر باعطاء المبشر بهذا الخبر
عشرة تومان

مع ان الحقيقة هى ان الملك لما بلغه الهيجان الحاصل لحضور الشاعر تكدر
وخاب أمله بالنسبة لابطال الترتيبات التى نظمها بخصوص منزله وأمتعته
ولذا ضعفت همته فى استقباله استقبالا حسنا ولكن لوقوف الشيخ عسكر
على حالة الملك وميله الزائد لسماع الاشعار وبالاخص من صنف الاشعار
التى يغنون بها فى المدائح الملوكية فكان الشاعر من شدة فطانته متذكرا
هذه المسئلة واستحضر على قصيدة أنشاها حال وجوده فى أيدى التركمان
ولما ان رأى اغبرار الملك من جهته والاعراض عنه فى الحال قام وتلا
القصيدة مرتجلا حتى ان الملك بسماعها بعد ان كان صارفا النظر ومحولا
وجهه عنه انشرح صدره ومال اليه ووجه التفاته العائد بالمنفعة عليه
نحوه وبالاختصار حشى فاه جوهرا تطييرا لما كابده من المشاق وخلع عليه
خلعة من أفخر الملبوس وأعيد لوظيفته وأمر له برد جميع أمتعته وكافة
ما كان يمتلكه

فلما بلغنى هذا الامر انشرح صدرى وقت بلا توانى قاصدا تهنئته بالثانى
حيث لم يكن لى سيد ولا ملجأ خلافه ولسان حالى يقول

سعد الزمان وساعد الاقبال * ودنا المنى وأجابت الآمال

واستمريت على التوجه كل صباح بدون أن أتأخر يوما الى مجلسه الرسمى ولما
تيقن من معرفتى واشتد ميله نحوى شرحت له حالتى وترجيته اما أن يعينى
فى وظيفة فى دائرته أو يتوسط لى عند أحد أصحابه ليتخذنى خادما عنده

وقد اطلعت على ان الاسباب الموجبة لخيبة الناظر على رجوع سيده هى ناتجة من خوفه مما نسب اليه من اختلاسه فى أشغال خاصته ولكونى باسباب ذلك تأملت توظيفى فى محله فكنت أظهر غيرتى الشديدة فيما يعود بالمنفعة على الشاعر وأخفيت عنه جميع ما أعلمه مما أجراه خدامه من التقصير ومع ذلك لم أنجح فى هذا المشروع ولربما كان السبب زيادة تبصره عنى ووقوفه على جميع الاحوال أو كون الناظر اتخذ الاحتياطات القويه فى براءة نفسه أو خلاف ذلك مما لا أعلمه حتى اختبل عقلى فى ايجاد الحقيقة وانتهى الحال على ابقاء الناظر فى وظيفته واستمريت مواظبا لحفظه الرسمى بصفة تابع مع عدم انقطاعى عن أداء الخدمة يومى

فاخيرا دعانى اليه عسكر الشاعر ذات يوم وقال لى يا حاجى يا صاحبى لا يخفى عليك وجوب الشكر الفائق اليك وممنونيتى الزائدة منك بالنسبة لما صنعته معى من الجميل الذى لا ينكر وقت ما كنا مأسورين سوية تحت أيدى التركمان ولاظهار تشكراتى ومكافأتك نظير ما سلف منك من المعروف فقد أوصيت عليك احد أصحابى ميرزا أحمد وأكدت عليه غاية التأكيد وهو حكيمباشى الملك كان محتاجا لخادم وانى أخبرك بلا شك انك اذا واظبت على خدمته والتفت اليه وانبسط منك فانه يعلمك هذه الحرفة ويجتهد لك فى الطريقة الموجبة لازدياد ثروتك وما عليك الا الآن الا التوجه اليه والدخول عنده واخباره انك مرسل من طرفى وهو يوقتها يعينك فى وظيفة

فلما سمعت كلامه شكرته وقلت فى نفسى اننى لم أتدرب فى صناعة الطب ولم يسبق لى الخوض فيها ولكننى تذكرت حكاية الدرويش التى ألقاها أمامى فادعيت معرفتها وعدم مبالاتى بها باحتقار اغما لسوء حالتى وضياع دراهمى لم أجد سبيلا الا قبولى خدمة الحكيم وعلى ذلك توجهت فى صباح ثانى يوم الى منزله الكائن بجوار السراية وعندما دخلت وأنا متردد أقدم

رجلا وأؤخر أخرى كالضيف المهجور حتى توسطت فى عرصة البيت فوجدت جملة أشخاص مرضى البعض مقرفص بجانب الحائط والبعض براعيهم أصحابهم والبعض مجهزون زجاجا فى أيديهم ينتظرون خروج الحكيم من عنابر النساء الى الزيارة العمومية

ثم تقدمت نحو شباك مفتوح حيث هناك واقف الاشخاص الغير مصرح لهم بالدخول فى أودته وانتظرت هناك لحين ما يطلبنى وكان داخل أودته جملة أشخاص حضروا اليه على سبيل التحية لان كل ضابط فى الديوان كان يجلس عنده فى محله الرسمى ومن تأملى لحالتهم توصلت الى الطريقة التى أتقدم بها فى أثناء حياتى وذلك بكونى أبذل جهدى فى ابداء ما يمكنى من المنفعة لاى شخص ولو لكلب أو لقط يصادفنى فى طريقى وبهذه الواسطة تصل الشهرة لا ذات الرجال من أولى الامر والسلطة ثم وجهت أفكارى نحو مصائبى التى كابدتها سابقا وكنت أحسب المدة التى يمكنى فيها التملق وابداء العبودية للناس حتى بها يشتهر اسمى وأجذب التفاتهم نحوى وذلك لما عاينته من انحناء الواقفين بجانبى علامة على التحية وقت حضور الحكيم وقعوده على الشباك يريد بذلك انه ابتدأ فى اعادة المرضى ومعالجتهم فى أثناء هذا النهار

وكان الحكيم رجلا طاعنا فى السن وعيناه غائرتان داخل رأسه وعظمتا خديه بارزتان لنحافة جسمه وذو لحية خفيفة وبظهره انحناء زائد وعند ما يجلس تكون هيئته مضحكة عارية عن الاعتبار فانه اذا جلس كان يرتكن مائلا برأسه من بين كتفيه ويداه موضوعتان على منطقته وأما كوعاه فكان يكونان منهمازا ويتان على كل جانب وكانت أسئلته حادة وأجوبته مهمهمة ذات دوى ويظهر عليه أنه لا يتفكر فى أمر آخر أثناء حديثه بل يرى عليه انه يحول أفكاره نحو الموضوع الذى هو بصدده

وبعد ان رأى حالات الامراض الحاصلة للناس الذين حضروا لعيادته وتكلم قليلا مع حلقة الطفيلية المحيطة به نظر لى بعد ان أخبرته انى أنا الشخص الذى تكلم معك الشاعر عنه فتطلع لى بعينه الحادة الصغيرة مقدار لحظة وأمرنى بالانتظار لانه يريد الاختلاء معى فى الحديث وعلى ذلك تركنى وخرج من محله لمشاهدة المرضى ثم دعيت بعد قليل بالجلوس فى محل منفصل محبوك بالحيطان من كل جهة الا من جهة واحدة بها محل الخلوة وفيها جلس الحكيم

﴿الفصــــل التاسع عشر﴾

((دخول الحاج بابا فى خدمة حكيم الملك والمسئلة التى تكلف بتأديتها فى مبدا خدمته))

وبمجرد ظهورى دعانى الحكيم الى أودته وأمرنى بالجلوس فأطعت أمره بكل خضوع كما هى عادة الفقير أن يظهر لمن هو أعظم منه الاعتبار والشرف الزائد وأخبرنى ان الشاعر مدح له فى حق غاية المدح وقال انى شاب يركن الى فى مهام الامور خصوصا فى كتمان السر والتبصر فى عواقب الامور التى تقلبت فيها زمنا طويلا فى حياتى وأصبت فيها بمصادقة آرائى وانى اذا أحيل على أى مسئلة يلزمها الاعتناء وعدم الافشاء وكانت ضرورية وصعبة الانفصال وأنيطت بى فانى أبذل ما فى وسعى سواء كان فى كتمانها أو نهوها باى صفة

(قال الحاج بابا) فلما سمعت كلامه قمت وانحنيت له جملة مرار تشكرا له ووضعت يدى أمامى مستورتين بكمى اعتبارا وتعظيما له مع احترامى الزائد فى ستر اقدامى واخفائهما ثم استمر فى حديثه قائلا

انى لفى حاجة شديدة لوجود شخص مضاهى لا وصافك فى هذه الدقيقة وبما

انه حصل لى ميل شديد ومحبة زائدة نحوك من تأثير توصية صاحبي الشيخ عسكر عنك ففي قصدى استخدام محاسن هممكم وتدبيراتكم فى مسئلة حتى اذا انجحت فيها تعود فائدتها اليك وتكون لى تذكرة عظيمة لا أطرحها عن فكري مدى الايام ومأثرة جليلة لخدمتكم مادام الليل والنهار ثم قربني منه وبعدان التفت يمينا وشمالا جهة كتفيه خيفة من أن يراه أحد قال لى بصوت منخفض ونغمة المحبة

يا حاجى لقد حضر فى هذا الديوان من مدة أحد سفراء الافرنج وبمعيته حكيم وقد اكتسب هذا الكافر الشهرة التامة فى هذه المدينة فانه يعالج مرضاه بكيفية جديدة بالنسبة لنا ولم يسبق لنا اجراؤها وقد أتى الينا بصندوق مملوء من الادوية التى لا نعرفها ولا نعرف أسماءها أيضا ويدعى أن له معلومية بجملة أشياء لم نسمع عنها مطلقا فى بلاد العجم ولا يفرق بين الامراض الناشئة عن حرارة أو برودة وبين الادوية الحارة والرطبة على حسب اقرار جالينوس أو ابن سينا وانه يعطى الزئبق بواسطة علاج مرطب ويغزا البطن بآلة حادة لاخراج الريح الذى يتكون بالمعدة وأدهى من ذلك ادعاؤه ازالة الجدرى كلية بواسطة حقنه فى جسمنا مادة من خلاصة مستخرجة من البقرة وانى يا حاجى لا أكتفى بهذه الحالة فان الجدرى كان دواما مصدر دخلى العظيم ولا يمكن ترك ذلك فان حضور كافر الى بلدتنا ومكثه فيها ومعاملتنا مثل البهائم لا نقبله ولا يتأتى لمثله أن يختطف اللقمة من أفواهنا

وان الداعى الموجب بالاخص لطلبي مساعدتك هو ان الصدر الاعظم حصل له توعك زائد منذ يومين ناشئ عن شراهته فى أكله خس وقثاء زيادة عن طاقته معموسين بالخل والسكر فطرق الامر مسامع سفير الافرنج وكان مشاهدا الصدر الاعظم فى أكل الخس فارسل له طبيبه بعدان استأذن منه بنظر أمره وتعاطى دوائه

و بظهرات الصدر الاعظم والسفير لم يتوافقا معا مدة من الزمان نظرا لما كان تطلبه السفير من الامور السياسية ولفائدة بلاد العجم مكر الصدر الاعظم عليه وتجهل الامر حتى انجبر على انكاره ولهذا السبب ظن ان هذه فرصة لمصالحة الكافر ورضائه فقبل مشورة حكيمه ولو كنت أعلم الواقعة لتدبرت الامر بوقتها بطريقة سهلة وأوقفت المسئلة ولكن الحكيم لم يتأخر لحظة فى اعطائه الدواء الذى لا يحتوى الا على حبة صغيرة بيضاء ليس لها طعم وقد نشأ من هذه الحوادث التى ساءتنا ما هو من أعجب العجاب وذلك انه لما حصل الشفاء للصدر الاعظم لم يتحدث بشئ الا بقوله انه استشعر ان الحبة جذبت الرطوبة من أطراف أصابعه ووجد قوته وعزمه يتجددان شيأ فشيأ و يتعجب من ذلك نظرا لتقدم سنه وكان يتحدث أيضا بقيامه بواجبات زوجاته المصرح له بزواجهن حسب الشريعة الاسلامية

ولم تستقر المصيبة على ذلك فقط بل انتشرت شهرة الدواء والحكيم الافرنكى فى عموم الديوان وأول أمر تكلم به الملك فى المجلس هذا الصباح هو خواص الدواء الخارقة للعادة ودعا بالصدر الاعظم ليعيد عليه ثانيا ما كان من أمره فى حضرته عن نفس الموضوع و بمجرد اخباره بالمنافع العجيبة التى ظهرت على شخصه ازاع جلالته دمدمة المدح والتعجب بالمجلس عن مهارة ونجاح الطبيب وعلاجه

فعند ذلك التفت لى جلالته وسألنى توضيح هذه التأثيرات الغريبة الناتجة من دواء يسير فلما أردت مجاوبته انحنيت جدا بقدر امكانى لمداراة خجلى وقبلت الارض وقلت

أدام الله اجلالك انى فداك يا ملك الملوك وانى لم أر للآن الاجزاء المتركب منها العلاج الذى أعطاه الحكيم الكافر الى خادم جلالتك الصدر الاعظم وبحال استكشافى ما يحتويه أحيط علم جلالتك به وان عدلك الوضيع

يلتمس من مركز الكون بتفكرة جلالتك ان الفاعل الاصلى لهذا الدواء هو الروح النجسة التى هى عدوة لدين الحق وقد أصبح آلة فى يد كافر يدعى على نبينا الطاهر عليه السلام انه غشاش مع عدم اعتقاده بالقدرة الالهية وبالقضاء والقدر

(قال حكيم الملك) وماقلت ذلك الا لتقليل شهرته التى تزداد يوما عن يوم ثم انى تركت الملك وأنا غريق فى بحور التأمل أتبصر فى الطريقة التى عكى بها استخراج مخبآت الكافر والوقوف على كيفية تركيب الدواء الذى ظهر منه هذه المعجزات والحمد لله يا حاجى الذى اسعفنى بك وحضرت فى هذا الحين لمساعدتى والواجب عليك الآن المصاحبة معه وانى أفوض أمر استمالته لهو اتك فى جذب عقله وتجسس معرفته وأريد انك تحصل على انموذج من نفس الدواء الاصلى الذى استعمله الصدر الاعظم لابى مجبور أن أوضح للشاه باكر عن أصل تركيبه وتحليله ومشتملاته ويلزمك أن تبتدئ فى أول خدمتك لى باكل كثير من الحس والقثاء الغير مستوية وتمرض كثيرا كما فعل سمو الصدر الاعظم وعند ذلك تذهب الى الحكيم الافرنكى للكشف عليك وانى لا أشك من أنه يعطيك علاجا من نفس الحبوب المشهورة وبوقتها تحضرها لى

(قال الحاج بابا) اذا كان أخذه الرعب من هذا الامر المهول فكيف بى لو أتداخل فيه وأقابل رجلا أجهله سيما أهالى أوربا فقد بلغنا عنهم جملة نوادر عجيبة حتى انى أرتبك بمقابلة هذا الرجل

ثم سأل الحكيم العجمى وقال له التمس اخبارى عن الطريقة التى أستعملها فى سيرى فان أحوالهم وعوائدهم مختلفة بالنسبة لنا فاجابه الحكيم واسمه ميرزا أحمق قائلا

لقد صدقت فى المقال ولاشرح لك بعض عوائدهم حتى ترسخ فى ذهنك فبدلا

من حلق رؤسهم وترك لحاهم تنمو كما نفعل فانهم بضد ذلك ولم ير على اذقانهم أثر الشعر وان شعر رؤسهم غليظ كأنهم تعاهدوا على عدم قصه بالكلية وكذلك يجلسون على كنبات عالية واما نحن فنفرش على الارض ويتناولون طعامهم بمخاليب من الحديد ونحن نأكل باصابعنا ويمشون دواما بعده ونحن نركد ويلبسون الملابس الضيقة ونحن نرتدى بالواسعة ويكتبون من الشمال الى اليمين ونحن نكتب من اليمين الى الشمال ولا يصلون مطلقا اما نحن فنصلى خمس صلوات كل يوم وبالاختصار لا يمكن الانفصال من سرد أحوالهم ولكن الاكثر تحققا عندهم انهم أوسخ أمة على وجه الارض لانهم لا يمسكون شيأ طاهرا ويأكلون جميع أنواع الحيوانات من الخنزير الى الضفدعة بدون أن يداخلهم أدنى ارتياب وبدلا عن ان يذبحوها من أعناقها فيشرحوها وهى ميتة بدون تطهيرها ويؤدون جميع وظائف طبائعهم البهيمية بدون ان يروا ضرورة للاستحمام فى الحمام السخن أو يدلكون أنفسهم على الاقل بالرمل

فسألته وهل حقيق انه اذا حصل شك فى كلامهم وادعى أحد انهم كذابون يثور غضبهم ويحاربون للممات فاجاب الحكيم يقال عنهم أيضا ذلك ولكن لم يحدث لى للآن بينهم أمر من هذا القبيل ومع كل فاواجب على أن أعلمك عن شئ واحد وهو انه اذا تصادف وأعياهم معرفة شئ أعجبهم فى حوزتك فلا يلزمك ان تخبرهم به مثل ما تخبر أحدنا من أهل الوطن وهذه نصيحة منى اليك فلترسخ فى ذهنك لئلا يتمسكوا على كلمتك ويتقوا بها ولربما لم يتأت منها فائدة ولم تأت بالمقصود فتصبح من تبكافيه انما تجتهد ببذل جهدك فى التكلم بحسب ما يتراءى بفكرك حتى اذا رأوك بهذه الحالة يميلون لحديثك

فأجابه الحاج بابا قائلا اذا كان الامر كما ذكرت الا افتكر ان الحكيم

الافرنكي يكذبني بحال ادعائي المرض حالة كوني في صحة سيما عندما أطلب منه دواء باسمي وهو لغيري
(قال مرزا الحكيم) لالا يا حاجي انك لمريض وحقيقة مريض هيا هيا ووضع ذراعه حول عنقه وقال اذهب وتناول قثاءك واحضر لي الحبة في هذا الصباح
(قال الحاج بابا) واستمر مرزا يلاطفني ويمنعني عن ابداء موانع لمعارضته في طلبه الذي لم يكن على بال ثم أخرجني بلطافة من أودته وتركته وأنا متحير بين ضحك وبكاء من هذه الوظيفة الجديدة التي ابتدأت فيها باشعالي هذه
ثم تفكرت في تمرض نفسي بدون مكافأة معينة وقلت لا أقبل ذلك وتأخرت عن المسير لخلاف عازما على انفصال الاجرة مع سيدي ولكن حال وصولي لاودته لم ألحقه بل رأيته على بعد داخل الى الحريم ولذا انجبرت ان أقوم بقضاء مأموريتي

﴿الفصل العشرون﴾

﴿في نجاح الحاج بابا في غش الحكيمين وحصوله على حبة من الدواء من واحد وقطعة ذهب من الآخر﴾

(قال الحاج بابا) ثم انني اتخذت طريق الموصل لمنزل السفير وبالفعل عزمت على اتمام مقصود الحكيم وان أتحايل على طريقة بها أمرض نفسي في أثناء الطريق ولكن بعد التأمل الزائد تذكرت ان تمريض المعدة غير مأمون ولربما يتأتى منه اتلافها كلية في لحظة صغيرة لان عدم موافقة الحس والقثاء لمعدة الصدر الاعظم يحتمل ان ذلك نظرا لتقدمه في السن وهذا لايحصل الا للفرد في المائة ولكن يمكن هضم هذه المأكولات هضما

تاماقى معدة شاب صغير مثلى وعلى أى حال فقد صممت على الحصول على الجبة بواسطة الحيلة ان لم يتيسر جلبها بصورة مرضية

ثم تاملت انى لو تمرضت فلربما يطلع على أمرى الحكيم ويظهر غشى ويطردنى من منزله بصفة غشاش فاستحسنت بان أسهل طريقة لاتمام مرغوبى وهى تظاهرى بهيئة أحد خدمة حرم السراية الملوكية واخترع له حكاية للحصول بها على غايتى وعلى ذلك توجهت الى احدى دكاكين الملابس الكهنة بالسوق واستاجرت برنسا مثل الذى تلبسه الكتبة ووضعت جانبا من الورق فى منطقتى بدلا عن الخنجر ونويت فى ضميرى أن أهيئ نفسى وادعى بكلام زيادة عما تقوله الخدمة العادية

وبالحال استدللت على الجهة القاطن بها السفير ولكونى متذكرا فى عقلى ما أخبرنى به حمزا أحق فوصلت لباب مسكن الحكيم وأنا خائف أقدم رجلا وأؤخر أخرى ووجدت الشوارع الموصلة اليه مزدحمة بالنساء الفقراء حاملات الاطفال على أذرعهن وقد أخبرت انهن أتين لتلقيح الجدرى لاطفالهن بالطريقة المستجدة وذلك لاسباب سياسية علم منها ان الافرنج يفعلون ذلك اشتياقا للعلو درجاتهم وشهرتهم لان الحكيم الافرنجى اذا عالج الناس مجانا لا ينتظر حاجة من المرضى خصوصا الناس الفقراء جدا الذين لا يمكنهم الوصول الى حكيم أعجمى بدون هدية أو اعطائه أجرة تقوم مقام اتعابه

وفى أثناء دخولى نظرت رجلا جالسا فى منتصف المحل بالقرب من رف خشب مرتفع موضوع عليه علب الحبوب وكتب وجملة مختلفة من العدد والآلات لا أعلم كيفية استعمالها وكان فى اللبس والمنظر أهيأ وأعظم من أى كافر نظرته فى عمرى فكانت ذقنه وشفته العليا لم يرعليهما أثر الشعر على شكل الطواشى تماما ورأسه مكشوفة على الدوام بدون مبالاة

وحول عنقه رباط ضيق وبعض اختراعات حول خديه كأنه يريد تغطية جرح أو مدا او اقداء وملابسه ضيقة جدا وبالاخص ساكوه البرانى مقصوص جميعه من قطع زوايا رفيعة والظاهر ان استعمال هذا القماش فى بلده كان نادر الغلوه وكان القسم التحتانى من لبسه غير منتظم ووجدته أيضا واضعا مركوبه داخل الاودة يدوس به على السجادة فاغتظت لهذا الامر حيث انها عادة منافية لاحوال الزينة

فلما رآنى خاطبنى بلغتنا وسالنى عن حالتى وأسرع قائلا ما أحسن اعتدال هواء هذا اليوم ولكون كلامه فى محله طابقته مصدقا عليه وبعد ذلك استحسنت ان أدهيه بالفاظ عذبة وان كانت كذبة وأتملق له بقدر طاقتى وأخبرته عما ناله من الشهرة العظيمة فى بلاد العجم وان لقمان الحكيم لا يضاهى جزأ من معرفته وان معاصريه أطباء العجم لا يكون فيهم لياقة لمناولته يد الهاون

فلما سمع كلامى لم يتلفظ بكلمة فاتفقت له ان الملك لما بلغه التأثيرات العجيبة الناتجة من دوائه لوزيره أمر مؤرخه بدرج هذه المسئلة فى تاريخ المملكة ويجعلها من النوادر المهمة التى حصلت مدة حكمه حتى شاع هذا الامر وكان له وقع عظيم داخل سرايه جلالته لان كثيرا من الستات تمرضوا واشتاقوا جدا التبربمحاسنه وان محبوبة الملك الجارية الجرجانية قد أضربها المرض حقيقة حتى ان رئيس الطواشية بناء على ارادة جلالته الخصوصية ندبنى للحصول على دواء من عينة الدواء الذى استعمله الصدر الاعظم ثم سألت الحكيم ان يسعفنى حالا بجزء من هذا الدواء

فلما سمع كلامى أظهر لى افتخاره على ما قلته وبعد ان تأمل قليلا أجابنى انها ليست عادته أن يعطى الدواء بدون كشفه على المريض أولا لانه بذلك ربما يحصل له ضرر عوضا عن الشفاء واذا وجد الجارية فى حاجة لمساعدته يكون مسرورا للالتفات اليها ومراعاة خاطرها فاجبته أما من جهة

كونك

كونك تريد النظر لوجه الجارية الجرجانية فامر لا يتأتى و يستحيل وقوعه لعدم السماح لاحد ما فى بلاد العجم بالنظر الى المرأة الاجنبية خلاف زوجها وأما اذا الجأتها الضرورة وكان الالم شديدا يخشى منه فحينئذ يؤذن للحكيم بجس نبضها ولا يفعل ذلك مالم تلف يدها بحاجز من القماش فاجابنى الحكيم الافرنجى عن ذلك انى لاجل أن أكون على معلومية تامة مما يشكو به المريض لم أجس النبض فقط لا بل وانظر اللسان أيضا فقلت اما مسئلة النظر فى اللسان فشئ مستجد لم يسمع به للآن انسان فى بلاد العجم وأنا على يقين من عدم امكانك التملى بهذه الرؤية الا بمقتضى ارادة خصوصية من عظمة الملك عباس الا انها يفضل قطع لسانه أولا أسهل له من هذه المسئلة

(قال الحكيم) لا بأس من ذلك ولكن تبصر فى أمرك وهو انى اذا أعطيتك الدواء أكون خالى المسؤلية مما يحصل منه من التأثيرات لانها ان لم تشف فلربما تميت

فلما أيقنت له عدم مسه بضرر أو وهم ينتج من ذلك مطلقا فتح صندوقا كبيرا يظهر انه مملوء من أصناف العطارة وأخرج منه جزأ يسيرا بمقدار معلوم من مسحوق أبيض ومزجه ببعض الخبز وجعله على شكل حبة ثم لفها فى ورقة وناولها الى بعدما أورانى الوسائط الكلية فى كيفية استعمالها ولما تبين لى منه عدم اخفائه شيأ من معرفته ابتدرته بالسؤال عن أصل وخواص هذا الدواء الخصوصى واستعماله على وجه الاطلاق فاجابنى بدون ملاحظة شئ ليس مثل حكمائنا الاعاجم الذين يتفاخرون فقط بعذوبة الالفاظ و يصلحون كل مرض يصادفهم بما يطالعونه فى كتب جالينوس ومعتقداتهم وابن سينا

ثم انى بعدما التقطت منه ما أمكنى معرفته تركته مظهرا له علامات المودة

والشكر ورجعت حالا الى مرزا أحمق الذى كان ينتظرنى بلا صبر الا اننى نزعت ملابسى المؤجرة ودخلت عليه بوجه سقيم على حسب ما أمرنى فى أول الامر لادخل فى ذهنه ان الحس والفناء حصل منهما تاثير وكنت كلما أكلمه بكلمة ادعى بحصول ضربات فى قلبى واستمريت بهذه الحالة متظاهرا بسوء عاقبة الالم حتى ان طبيعة مرزا أحمق التى جبلت على الفظاظة والعبوسة والصلابة لحت ببعض اشارات من الشفقة والاسف نحوى وذلك انه بحال دخولى عليه صحت قائلا (باسم الله خدا غنيمت لك) وأنا مظهر الالم وحنى نصفين ومعبس وجهى لآخر درجة وأتاوه بانين من صميم الفؤاد وأقول له ها قد نفذت أوامرك وقضيت حوائجك فها أنا الآن اسلم نفسى لقبضة مروتك وجودك

فاجتهد بوقتها للوقوف على اسباب الحصول عليها فتكلمت عليه الامر وفى اثناء ما كنت اظهر له انى منتظر جائزة وقتية فكنت اريه بعض اشارات تدل على ازدرادى اياها ان لم يناولنى فى يدى شيأ مكافأة لذلك ولكن لما هو معتريه من الوجل الشديد لعدم قدرته على اجابة أسئلة الملك بخصوص هذه الحبة ولكونه أيضا كان فى شدة الاضطرار اليها وضع فى يدى قطعة من الذهب ولم أجد عاشقا يمكنه مقاضاة سيدته بقوة عظيمة لقضاء معروف زيادة عما فعله الحكيم معى بخصوص حبتى فوات كان فى امكانى اطالة الغش والاستمرار عليه واجتهادى فى جذب قطعة اخرى من الذهب الا اننى لما رأيته يجهزلى جرعة لسهولة المشى من مزوجه الخاص ووجدت ان ذلك يأخذ زمنا طويلا فادعيت زوال الالم مرة واحدة وعدت عن أخذ الدواء وأبطلت طلب مكافأة اخرى ولما ان صارت فى حوزته تفرس فيها وهو يقلبها يمينا وشمالا بدون أن يظهر فيها أدنى صناعة تزيد على

معرفته الاصلية فاخير المار أيته على هذه الحالة من تبكا فى أمرها استاذ نته بتطمين خاطره كليه وأخبرته أن الحكيم الافرنجي لم يخف شيأ منى وقت تركيبها وانها محتوية على الزئبق

فلما سمع مرزا أحمق هذا الكلام صاح باعلى صوته قائلا باللعجب انه حقيقة من الزئبق (جيوه) وقد خفى عنى هذا الامر وذلك أن الكافر كاب النصارى يريد أن يسمنا بالزئبق فينشأ من فعله هذا اندثار شهرتى ووصفى للعلاج ولم يبق غنى أحد وأصبح أضحوكة بين الناس فمن من العالم أتى بسمعه ان الزئبق يعطى للدواء فهو بارد والخس والقثاء أيضا باردان ولا يمكنك يا حاجي استعمال الثلج لتحليل الثلج فالحمار لا يدرى مبادى أصول وظيفته وهذه الفعال لا تخلصنا يا حاجي ولا نقتنع بذلك كما ولا نسمح بان الناس يضحكون على ذقوننا بهذه الحالة

(قال الحاج بابا) واستمر مرزا يسبو و يذم فى حق خصمه زمنا طويلا ولولا ان أتاه كتاب من الملك لاستمر مليا فى بذل الفتن والفساد ضده وفيه يامره الملك بانه بمجرد وصول كتابه اليه لا يتأخر درجة عن الحضور امام جلالته بقدر ما يمكنه من السرعة وفى الحال توشح بوشاحه الرسمى وغير قاووقه الاسود الذى من جلد الشاة بآخر ملتف عليه طيلسان ولبس جواربه الجوخ الحمر وهو طايش العقل ودعا بحصان وركبه وأخذ الجبة معه وتوجه بغاية السرعة متلبسا بالافكار الكثيرة عما ستكون نتائج هذه الجلسة

((الفصل الحادى والعشرون))

((فى بيان الكيفية التى يتعاطى بها الشاه الدواء))

(قال الحاج بابا) واستغرقت زيارة الحكيم مرزا عند الملك لحد المساء وعند

عودته دعانى اليه وقد وجدته من هيئته الظاهرية ممـلوأ من الغضب والغيظ الشديد ولما رآنى قادما عليه قال لى يا حاجى اقترب واجلس بجانبى وبعد أن أمر بصرف الحاضرين من أودته للاختلاء بى سارّنى بقوله ان هـذا اللعين لابد وان يكون متفقا على أمر مجهول وهـل لا تتصور ماحـدث فان الشاه استشاره وعقد معه جلسة نحو الساعة فى هذا الصباح بدون أن أعلم شيأ عنها وقد أرسـل لى جـلالته ليخبرنى بنتيجتها والذى أراه بمركز فكرى ان الافرنجى اكتسب سلطة عظيمة ونجح فى مشروعـه ويظهر ان الملك شرح له تاريخ شكواه ومابه من الضعف والربو المزمن وما عنده من التخمة وكان كلامه عن هذا الحقير بفرح وانشراح بالنسبة لفطانته ومداخلتـه وقال انه قبل أن ينظر لسانه ويجس نبضه وقبـل معـلوميته باصل الحالة سأل جلالتـه عما اذا كان جارى استعمال الماء الساخن على الدوام وهل يحدث له عوارض سعالية عندما يشرب الدخان وهـل لم يكن متعودا أثناء الطعام على استعمال المخللات فى السفرة والحلويات والارز كثير السمن وان الملك اذن له بثـلاثة أيام لفحص حالتـه واستشارة كتبـه وجمع آراء عقـلاء الافرنج عن المواضع المهـمة الموافقـة لحالة بلاد العجم وان يركب دواء مفيدا ومعيدا البنيتـه فى أقرب وقت وبعـد ذلك سالنى مركز الكون أن أبدى آرائى وأمرنى أن اشرح بكل جسارة طبائع وخصائص الافرنج عموما وعن حالة علاجهـم فاتباعا الامر جلالتـه لم أضيع هـذه الفرصـة فى شرح جميع حواسى وبعـد الانتهاء من خطبة حـديثى العادية خاطبتـه قائلا

اما طبائعهم التى لا تخفى عن فطنة جلالة الشاه الساميـة وحكمته الباهرة فانهم كانوا اقوما عديمى الاعتقاد ونجسين وذلك لمعاملتهم نبينا اسوة غشاش ويا كلون لحـم الخنزير ويشربون النبيـذ بدون تحريم وكانوا

كالنساء فى المنظر والدبب فى الاحوال وكان الواجب التشديد بالحكم عليهم لما هم عليه من أعظم شبهة بان غرضهم النهائى الاستيلاء على الممالك وان يخضعوا ويذلوا الشاهات والامراء ويكونوا عبيدا خاضعين اليهم وانظر ماقد كان منهم فى الهند

وأما عن أدويتهم فصحت قائلا الله يحفظ جلالتك منها فانها خائنة فى التأثيرات كما ان الافرنج خائنون فى سياستهم لاننا ما نستعمله لحدوث أسباب الموت يدعون أنه مفيد عندهم للشفاء وان الجزء الاصلى الذى يدخلوه فى تراكيبهم هو الزئبق (وهنا أبرزت اليه حبتى) واما عن استعمال آلاتهم وأسلحتهم فحدث ولا حرج فقد روى عنهم انهم ينشرون أعضاء الانسان أملا لنجاة حياته ثم انى أظهرت له صورة مبينا فيها التأثيرات القاتلة التى تنتج من استعمال العلاج الاجنبى حتى انى بهذه الاباطيل أضعفت ميل الشاه نحوهم وأوعد انه لا يأخذ الدواء مالم يعمل الاحتراسات القوية فى اصل تركيبه كما يقتضيه تبصره وحكمته وقد حصل الاتفاق على ذلك وقال انه عندما يرسل اليه الحكيم الافرنجى العلاج الجارى تركيبه يدعونى بجلسة اخرى فالآن ياحاجى لا عس الملك علاج الافرنجى لانه لو تصادف وتعاطاه وكانت نتيجته مفيدة فتضيع شهرتى وينذر اسمى ويكون عدمى كحياتى ومن ذا الذى يستشير مرزا احمق بعد ذلك ثانيا فلابد من السعى والاجتهاد فى استبعاد هذه الحادثة ولو ألزم بأخذ جميع عطارته لنفسى

(قال الحاج بابا) ثم افترقنا بوعد مرضى لبذل ما فى وسعنا المعارضة الحكيم الكافر فى جميع حالاته ولم يمض على ذلك ثلاثة أيام الا والملك طلب مرزا احمق للبحث عن الهيئة المعهودة المحتوية على علبة من الحبوب ومن المعلوم انه أوجد جميع انواع الريبة والشكوك ضدها عليها وابدى بعض

اشارات مبهمة عما يحدث من الخطر من تعاطي أي تركيب يؤخذ من وكيل دولة أجنبية حتى انه أخيرا أمال عزم الملك لاحالة هذه المسئلة على وزرائه للتروي فيها ولما انتصب المجلس ثاني يوم كالمعتاد وجلس الملك على تخته وعلى يمينه وشماله الصدر الاعظم وخزنداره العمومي وناظر الداخلية وكاتب سر المملكة ورئيس خدمته وميرياخوره والسرتشريفاتي ورئيس حكمائه وكثير من ظباط معيته العظام ابتدأ جلالته يخاطب وزيره الاعظم ذاكرا له المخابرات التي حدثت بينه وبين الحكيم الاجنبي المقيم الآن بديوانه وعن استرداد وتجديد الذات الملوكية وانه في الجلسة الاولى التي امتحن فيها الحكيم الاجنبي عظمته الملوكية أورى بوجود دلائل قوية دالة على ضعف بنيته وبعد ان أكد للملك في الجلسة الثانية انه أشغل نفسه ثلاثة أيام باكملها في البحث في كتبه وتواريخه وبعد ان جمع منها أراء عقلاء مملكته على هذا الموضوع استنبط جملة أجزاء مختلفة من العطارة وجعلها جزأ واحدا وقال انها اذا استعملت من الداخل ينتج منها تأثيرات عجيبة حتى ان الطلاسم لا تؤثر ضدها ثم قال جلالته انه دعا أرباب مجلسه وطبيبه العمومي الذي لتشوقه لازدياد ثروة بلاد العجم بالغ بالافتخار الكلي وعلا بشهرة مملكته على نظامات وتأثيرات الاجنبي وأطنب في قدحهم بالنسبة لما طرأ بعقله من الشكوك والمحذورات المعلومة له التي أبان فيها سببين عارض فيهما أولهما عن ما اذا كان يستباح سياسيا التسليم للنظامات والهيئات الاجنبية في تعاطي العلاج الداخلي للذات الملوكية وثانيهما عن ماذا لم يكن في الدواء الموصوف فاعليات خفية ومهلكة ينشأ منها خطر كامن يظهر ضرره بالتدريج وينتهي بافتراس جسم عظمته الملوكية بعد ان كان يظن فيها استرداد وتقوية صحة وجسم جلالته

فبناء على هذه الاحوال قال جلالة مركز الكون بصوت عال في هذا الوقت

لقدمر بفكرى ان الاحسن الكف عن الشروع فى تعاطى هذا الدواء وقد قصدت بنشر هذه القضية امامكم حتى بحكمتكم الفائقة وعقولكم النيرة انتظام هذا الرأى حتى يكون موافقا لعرضه امام الملك ولكى ان تستمروا فى موضوع القضية بمعلومية تامة عن الحالة عزمت بصفة قضية ابتدائية ان كل واحد منكم يتعاطى من هذا الدواء لشخصه خاصة وبذلك يمكننى ويمكن كل منكم يحكم فى تأثيراته المختلفة فلما سمعوا كلام الملك صاح الصدر الاعظم والحاضرون بالدوات قائلين ادم يا الهى الشاه مؤبدا ولا ينقص ظله الملوكى سرمدا فان سرورنا لم يقتصر فقط على أخذ العلاج بل لبذل أرواحنا فى خدمة جلالتك فنحن فدية عنك وعبيد بين يديك ونسال الله ان يهب لجلالة الشاه أعظم صحة وينصره على أعداه

فلما سمع الملك كلامهم أمر رئيس الخدمة باحضار علبة حبوب الحكيم الاجنبى من داخل الحرم الملوكى فتوجه وأحضرها وناولها لجلالته موضوعة على طبق من الذهب فدعا الملك برئيس حكمائه للاقتراب منه وأعطاه علبة الحبوب وأمره أن يبتدئ من الصدر الاعظم وما جاوره من الامراء والذوات بالترتيب على حسب رتبهم ويعطى كل واحد حبة من العلبة لتعاطيها ففعل ما أمر به الملك وبعد ان أخذ كل منهم حبة من الجرعة الموصوفة تبع ذلك توقف عام عن الكلام وفى أثنائه صار يتأمل الملك جدا بغاية الاعتناء لوجه كل واحد ليقف على أوائل تأثيرات العلاج

ولما هدأت الوجوه المعوجة كانت الدورة فى المذاكرات على مصالح أوربا وفيها سأل عظمته جملة أسئلة متعددة وأجيب عليها من الاشخاص الحاضرين باحسن ما يمكنهم من الاجابة ولم يمر غير قليل من الزمن الا وابتدأ ظهور فاعلية العلاج وذلك ان الخزندار وهو رجل هائل المنظر غليظ الجسم

كان واقفا لهذه الدقيقة بدون ان يتحرك ويقول (بلى بلى) نعم نعم عند ما يبتدى الملك بالكلام ولم يقل غير ذلك لما اعتراه من الضعف فى هذا الوقت لان ما ابتلعه كان موجبا لقوة فعالة فى جسمه تسبب منها هياج جملة امراض ساكنة وكانت أعين الجميع شاخصة اليه حتى نشأ من ذلك ازدياد حالته المزعجة

واما كاتب السر وهو رجل رفيع طويل ونحيف الجسم قد اصفر لونه وتقاطر العرق من جميع مسام جسمه ثم تبعه ناظر الداخلية الذى التزم من سوء حالته الناتجة من تاثير العلاج الاستئذان من جلالته تاركا حضرة عظمته وقد أعقبه جميع الحاضرين بالتوالى وهم يتحركون بطرائق مختلفة عن بعضهم ماعدا الصدر الاعظم فانه كان رجلا هرما صغير الجسم مشهورا بشدة وصلابة طبيعته حيث كان يرى عليه انه كان يدارى وجهه بكمه ويضحك على ما يكابده رفقاؤه الذين فى ديوانه من المشقة والمسكنة ولما عاين الشاه تاثير العلاج أمر بانفضاض المجلس وأمر مرزا أحق انه حال ما يتحقق نتيجة كل حبة وما نشأ عنها يقدم لجلالته بيانا رسميا من عموم الحادثة ثم قام ودخل حرمه الملوكى

(قال الحاج بابا) لقد تمكن الحكيم الهرم المكار من السلطة على خصمه لانه من كل معلوم انه قد أجاد فى بيان المسئلة جليا أمام الملك وبذلك جلالته امتنع عن تجربة العلاج المجهز من الطبيب الاجنبى وأودعت المسئلة فى زوايا النسيان حتى ان مرزا أحق عندما قابلنى ثانى مرة وبعد ان أخبرنى بالقصة السالفة الذكر لم يتمكن من تكتم سروره وتهليله بقوله لى لقد جار بنا وقاومنا عدونا يا صديقى الحاجى فان الكافر افتكر اننا مجانين ولكن سنعلمه من هم الاعاجم ومن هو هذا الكلب حتى انه يصل لهذا الشرف السامى ويصف علاجا للشاهنشاه كلا فان هذا الامر من خصائصى فلا نبالى

باكتشافاته المستجدة ولا تفيدنا شيأ فما أخبرنا به آباؤنا من الاجراآت والتجربات فنحن نجريها بكل سرور والادوية التى شفت جدودنا تشفينا أيضا وما أمر به لقمان وابن سينا من وصف الادوية فنحن نأمر به .

(قال الحاج بابا) ثم ان مرزا أحمق أمرنى بالانصراف ليختلى بنفسه كى يتبصر فى الطرق المدمرة لمقاصد الحكيم الجديد اذا حصلت منه معارضات مستقبلة حبا فى حفظ شهرته ومعارفه فى الديوان الملوكى

﴿ الفصل الثانى والعشرون ﴾

﴿ فى طلب الحاج بابا من الحكيم ترتيب ماهية له ونجاح مطلوبه ﴾

(قال الحاج بابا) وأقمت زمنا طويلا على هذه الحالة مع الحكيم وكانت اقامتى معه ليست بصفة خادم له بل تزيد عن محبة الصاحب حيث كان يأذن لى بالجلوس فى حضرته والاكل على مائدته كما والتدخين من شيشته وقد تعرفت فى ذلك الحين باتباعه فكنت آكل وأشرب وأدخن معهم أيضا ولكننى تأملت ان هذه الحالة التى تستغرق زمنا مديدا من حياتى لم توافق آرائى ومستقبل آمالى فان الدراهم التى أخذتها منه هذه المدة هى القطعة الذهب فقط المذكورة آنفا وتحصلت عليها باعهارتى ولم يكن له فضل فيها وباستمرار الاشغال وتوالى الايام علمت انها آخر العطايا فلما رأيت نفسى محروما من الدراهم ولم أنل شيأ مادمت فى خدمته قويت عزمى بالاستفهام منه عن الكيفية وعلى ذلك انتهزت الفرصة العظيمة لعرض شكواى وبث مصائبى اليه فى اليوم الذى انتصر فيه على الحكيم الاجنبى وكان اذ ذاك آتيا من جهة البوابة الملوكية بعد أن تشرف بمقابلة الشاه الذى استعطف بخاطره بوقوفه ساعتين فقط بدون مداس بجوار ينبوع من الجريد لا عن ستة ساعات كما هى العادة فى أغلب الاحيان وذلك انه لما رآنى صاح بفرح

زائدقائلا
ماأطيبه من ملك وماأحلمه وأبشه تحت قبة الفلك ويا له من شفوق أنعم علىّ بالافضال التى يعجز لسانى عن حصرها فانه سب الحكيم الاجنبى وقدح فى حقه بالنسبة لمعارفى الى ان قال انه لايليق لحفظ مدامى ثم أمر خادمه المتقرب اليه باحضار سماتين هدية لى من صيد الصقور الملوكية
(فاجابه الحاج بابا) لقد صدق الشاه فى مقالته فن ذا الذى يضاهيك فى بلاد العجم وأنت فريد العصر ووحيد الدهر فان من سعد الشاه وجودك عنده وأعظم كنز حازه فى ملكه ومن هم الافرنج حتى يتداخلوا فى مسئلة العلاج فان كانوا فى حاجة للتعلم والعلم والشطارة فعليهم بعرز أحمق
فلما سمع كلامى أعجبه ثنائى وتبسم بلطافة واطمئنان وأخرج من فمه شبك الدخان وناولنى اياه وهو يبرم فى شاربيه ويمشط لحيته وأنا مستغرق مقالتى قائلا ان شاء الله يكون لى نصيب للاشتراك فى مجد شهرتك الا انى أرى نفسى كالكلب ولا اساوى شيأ كلا ولا اضاهى طينة جذور الورد فاجابنى الحكيم يقول ماهذا الذهول أمعتريك جنون فقلت كلا ولكنى أسمعك حكاية وازلك الحكم بما يتراءى لك فيها من عدلك وهى
(حكى) ان كلبا من مدة كانت هيئته وطباعه مشابهة لهيئة وطباع الذئب تقريبا حتى ان الذئاب سمعت له بالدخول فى جمعياتها فكان يأكل ويشرب ويصطاد الغنم معها وبالاختصار كانت فعاله كفعال الذئب ولما يوجد مع الكلاب يعيش بعيشتها ويجرى اجرآتها ويدخل فى زمرتها أيضا ولكن شيأ فشيأ رأت الكلاب أنه يجتمع بزمرة الذئاب فنفرت منه ثم وتصادف ان الذئاب أيضا انكشفت على أمره بانه كلب حقيقى ليس منهم فلم تسمح له مرة ثانية بالدخول فى عصبتها فاصبح ذلك الكلب المسكين مهجورا وذليلا بين الفريقين ولكونه لايطيق ان يتحمل هذه الحالة

المبهمة فنوى على السلوك فى أحد الامرين اما أن يكون كلبا أو ذنبا حتى يتخلص من هذا الذل

ثم صحت قائلا (وها أناذالك) لانك تأذن لى بالجلوس والتدخين معك وهما أعظم غذاء لى وتحدث معى وتشاورنى فى الامور لغاية ما أمرتنى بالدخول فى جمعيات أصحابك ولكن ما الفائدة التى تعود على من ذلك فانى مازلت خداما ولم أغتنم باحدى الفوائد لانى لا أكتسب شيأ وعلى هذا ألتمس منك تعيينى فى الوظيفة التى تريد أن تقيدنى فيها فى خدمتك وتجعل لى مرتبا فصرخ الحكيم قائلا أحقيقة تطلب مرتبا انى لا أعطى مرتبات أصلا فان أتباعى يأخذون ما يمكنهم من مرضاتى فافعل مثلهم وانهم يأكلون ما بقى من مائدتى ويأخذ كل واحد جبة سنويا فى عيد النيروز فما الذى يلزمهم زيادة على ذلك

(قال الحاج بابا) وبينما الحكيم فى لهجته اذ دخل عليه أحد مشاة الشاه حاملا على يده صينية من الفضة موضوعا عليها السمانتان اللتان اهداهما الشاه للحكيم وناولهما بغاية الاحترام اليه فقام من كرسيه ووضع الصينية فوق رأسه داعيا للملك باعلى صوته قائلا اللهم أكثر خير جلالته وزد عزه وأطل لنا عمره وبعد ذلك أراد أن يعطى الرسول هدية فارسل له خمسة غروش فردها الرسول باحتقار فارسل له تومانا فلم يقبله أيضا ثم استقر الرأى أخيرا بعد اليأس على اعطائه خمسة تومان حيث هذا المبلغ وجد لائقا به فاخذه وتوجه لحال سبيله وهذه الحالة السيئة أضعفت سروره الناتج من الهدية حتى ان الحكيم تفوه ببعض ألفاظ غير لائقة لو بلغت لمسامع الملك لكانت سببا لوقوعه فى تعب شديد ومن ذلك قوله متعجبا باحتقار ماهذه الهدايا ولا حاجة لى بها فانى أغنى أن تكون مثل هذه الهدايا فى الآخرة لاننا جارين دفع أجر باهظة نظير ذلك لاتباع الملك وهم عصبة من القوم اللئام الطماعين الذين أزالوا عن وجوههم برقع الحياء ويطلبون

الاحسان بدون شفقة أو خجل والادهى من ذلك ان لم ندفع اليهم ما يرضيهم والا فنكون تسببنا لانفسنا فى الاضرار وانذارنا بمستقبل الانتقام وحينئذ لا نجد من راحم يأخذ لنا بناصر فانى لا أنسى ما قاله السعدى فى حكمه بانك لا تأمن لصحبة عظيم وأمن لمرافقة الفطيم فان الاول يغدر عليك من أوهى الامور والثانى يغدر بعض الليل وبالنهار اليك يميل

(قال الحاج بابا) لقد امتلأ الحكيم رعبا وانزعاجا زائدا مما ازلف منه من افتتاح كلامه بالفاظ غير لائقة حتى انه مما حاق به الخوف الشديد وضيق الدنيا أمامه قبل على نفسه خسارة الخمس تومان وتجنب ما كان يبديه من الملام خوفا من أن تكون عاقبته عليه بالتلف والخسران فلما رأيته على هذه الحالة استحسنت عدم مفاتحته الآن فى موضوع طلباتى وأن أؤجله لفرصة مستقبلة الا انى قصدت فى سرى ترك خدمة لقمان عصره عند وجود وظيفة فى جهة أخرى وأن أرضى بحالتى الحاضرة التى لم تعد بمثابة كلب ولا ذئب

﴿الفصل الثالث والعشرون﴾

(عدم اقتناع الحاج بابا بوظيفته واهماله ووقوعه فى العشق والهيام ومكابدته لواعج الغرام)

(قال الحاج بابا) ولكونى غير مقتنع بقسمتى الحالية وجاهلا بمقاصدى المستقبلة فكانت أيامى تمر بالكسل الكلى والاهمال فى تأدية أشغالى لعدم رغبتى فى اتباع خدمة الطب التى تحصل عليها كثير من الناس قبلى بمجرد ارتكانهم على أساس واه لا يأتى بفائدة عظيمة لمستقبلهم كما حصل لى الآن الا انى اعتنيت قليلا بالتفاتى لبعض من معلومات مرزا أحمق ولو لم تحصل لى الحادثة التى نشأت من حالة اقامتى الغير مناسبة وتسبب عنها

تأخيري بمنزله لكنت تركت نحو منه بوقتها وبحثت على محل آخر وتركت السعي والاجتهاد وقلت من قلة حيلتي ماينفع المال اذا كان العمر فانيا وتمثلت بقول القائل

لاشئ مما ترى تبقى بشاشته * يبقى الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان اذ تجرى الرياح له * والجن والانس فيما بينها ترد
أين الملوك التي كانت نوافلها * من كل ارب اليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب * لابد من ورده يوما كما وردوا

وهذه الحادثة قد أوجبت لى حاسبات أبطلت كلية ماعندى من الافكار التي كنت أتدبرها لمستقبل معيشتي وأصبحتني عبد رق لديهم فكنت أقاسي منهم أليم العذاب وأتحمل من حركاتهم شديد اللوعات حتى اعتقدت حقيقة ان المجنون مهما بلغ في الخبول لا يفوق عني في الجنون واني بعد هذا كله لا حاجة للتوضيح بان أقول اني وقعت في شرك الهوى

أرى التحمل شيأ لست أحسنه * وكيف أخفي الهوى والدمع يعلنه
أم كيف صبر محب قلبه دنف * الهجر ينحله والشوق يحزنه
وانه حين لا وصل يساعفه * يهوى السلو ولكن ليس يمكنه
وكيف ينسى الهوى من أنت همته * وفترة اللحظ من عينيك تفتنه

فان الحب لا يخفى على الصب وكفى قول من قال

للصب نار على عيني مضرمة * لم تبلغ النار منها عشر معشار
الماء ينبع منها من محاجرها * يا للرجال لماء فاض من نار

ولكن لم يكن لى حيلة الآن الا السكوت والرضا بما أنا فيه حتى أنظر مايكون من مستقبلي وأنا أصبر نفسي بهذين البيتين

ألا يا نفس ان ترضى بقوت * فانت عزيزة أبدا غنيه
دعى عنك المطامع والامانى * فكم أمنية جلبت منيه

والسبب فى ذلك كله هو انه لما انتهى فصل الربيع وأقبلت علينا حرارات أوائل الصيف التى تؤثر فيهم أوجبت أغلب سكان المدينة بنقل مفروشاتها على أسطحة منازلهم للنوم عليها واستنشاق النسيم اللطيف ولكونى لا أرغب أن أمضى ليلتى مع الخدامين وهم الفراشون والطباخ الذين أغلب رقادهم سوية فى محل أرضى فبالقضاء والقدر فرشت فراشى على جانب سطح يطل على حوش منزل الحكيم الداخلى الموجود به مساكن النساء وهذا الحوش كان مربعا وجميع شبابيك المحلات محيطة به من الاعلى ومزروع فى وسطه أشجار الورد والياسمين والحور وغير ذلك ويتخلله من الوسط كوشك مربع من الخشب يفرشونه بالمراتب للجلوس فيه وقاية من الحر الشديد وقد نظرت جملة من النساء جالسات متفرقات فى جوانب الحوش ولم يحصل لى أدنى تأثير منهن أو انجذاب قلبى مطلقا لاحداهن وبذا لا التفت اليهن وبحيث لو داومت على ذلك لحرمت من مشاهدتهن ولو اكتشفن على أمرى لتراكمت على المسبات واللعنات من كل جانب ويدعوننى باقبح ما يمكنهن من الالقاب

وقد حدث فى احدى الليالى بعد غروب الشمس بينما أفرش فرشى اذ لمحت بالصدفة من خرق بسور السطح مشقوق للسقف امرأة مشتغلة فى توضيب ونشر ورق الدخان وكان برقعها الازرق ملقيا على رأسها قليلا وعندما همت للقيام وهى منحنية فكانت ضفائرها المترسلة فوق جبهتها سائلة برونق لطيف جدا مغطية وجهها تقريبا الا أن أغلبه مكشوف حتى ان هذه الهيئة أوجدت لى شوقا زائدا لمشاهدة باقى وجهها حيث كل ما رأيته فيها يشير على جمالها وحسن قوامها فكانت صغيرة اليدين مصبوغة بالحناء

وكذلك صغيرة القدمين وشكلها وصفاتها تدل على شدة حسنها وظرفها فتفرست فيها مليا ولم أتمالك نفسي من النظر اليها لما لحقني من هواها ومشاهدتي حسن محياها فلما أضرمت نارحبها في فؤادي صحت متأوها من شدة العذاب لعلها تشفيني برد الخطاب وعندما سمعتني تطلعت نحوى في الحال فاخذها الخجل والخبال ومدت يدها تستر وجهها برفعها فتمكنت في أثناء تغطيتها من مشاهدة قوامها الفتان وجمالها الهتالك حتى أصابتني بسحر عينيها واشتعل اللهيب في قلبي من ورد خديها وقد سترت نفسها بغيظ ظاهري لاني شاهدت انها كانت تساوي برقعها باجمل وضع وأحسن صناعة حيث انها تركت محلا كافيا لنظر الاحول عينيها المتلالئة تنتظرني بهما وتشرح هيجاني وتزيد توقد نيراني

وما نسيت وما أنسى تبسمها * وملبس الجو غفل غير ذي علم
حتى اذا طاح عنها المرط من دهش * وانحل بالضم عقد السلك في الظلم
تبسمت فاضاء الجو فالتقطت * حبات منتثر في ضوء منتظم

فلما استمريت متطلعا اليها باهتمام من نبل مقلتيها وهي مع ذلك مشتغلة عما لديها ضجرت مني وقالت بعد ان انثنت كالغصن الرطيب ومالت ماسبب تطرفك ألم تعلم أنه حرام وموجب لارتكابك الآثام فصحت قائلا لها يا قرة العينين وحق الامام الحسين لا تحرميني من هذا القوام فليس في العشق من حرام فان عيونك السود كوت فؤادي وتبدل نومي بالسهاد فبحق أملك وغربتي في البلاد تسمحي بنظرة بجميل محياك وتحيي فؤاد عبد أمسى من أسراك فاجابتني بصوت أرق ونغمة ألين من ضرب العود بل أدق لماذا تسألني لتنظر لوجهي وأنت تعلم حرمة ذلك وما ينتج منه من المهالك وتحريم الاجنبية على الاجنبي وأنت لست بزوجي أو أخي أو أبي سيما لا أدري من أنت ومن أي البلاد أتيت ألم يأخذك من ذلك عار حتى

تخاطب جارية من ذوات الحشمة والاعتبار فما أتمت كلامها الا وسقط عن وجهها لثامها مظهرة عدم التعمد فى وقوعه فتمليت من مشاهدة وجهها وجماله وما حوى من الحسن الذى ما كنت أتصوره بتمامه فهمت بوصفها قائلا

لله اية ظبيـــة صادفتها * فسبت فؤادى بالجمال المفرد
مذ أرسلت لحظا وماس قوامها * صرت القتيل بعامل ومهنـد
لما رأتنى هائما فى حبها * كشفت قناعا عن محياها الندى
فنعمت فى روض الجمال بنرجس * من لحظها وبخدها المتورّد
كلا وزجاء الحواجبان رمت * عن قوسها سلبت فؤاد الاصيد
والانف مثل السيف زاه حسنه * والثغر بالدر النفيس منضد
ولها عقيقة مرشف من تحتها * وشم يضـــل بناسك متعبد
فضح الهلال جبينها لما بدا * من تحت طرة شعرها المتجعد
طالعت فى الغزل الرقيق فلم أجد * كصفاتها وأظنها لم توجــد
كم تاه فى ليل الذوائب عاشق * لولا السنا من وجهها لم يهتد
لو يسمع الشعراء حسن حديثها * لنسوا به طربا ملاحن معبد
لو أنعمت يوما بايسر نظرة * أهدت شفاء للعيون السهد
فوددت من طربى أطير تولعا * كيما أفوز بلمس قد أغيــد

فازداد شوقى نحوها وكدت أقترب منها لولا سماعى اسم زينب يتكرر المرار بلا اصطبار بصوت عال رنان فلما سمعت معشوقتى اللطيفة قامت من مكانها وذهبت لمن ينادى لها أما أنا فتسمرت فى محلى الذى نظرتها منه أولا وانتظرت مدة طويلة مؤملا عودتها فلم ترجع فالقيت آذانى أستنشق خبرها بين الصيحات الحاصلة فما سمعت شيأ عنها الا صوت غضوب يتردد بعنف وقسوة يتهدد ويرعب النسوة فعلمت انه لا شك صوت زوجة الحكيم وهى

امرأة يقال عنها انها أقل جمالا من أهلها وان زوجها المسكين فى قبضة يدها وخاضعا لامرها

فلما انتهى النهار وأتى الليل بالاعتكار وقت لتجهيز فراشى وأنا قاطع اليأس من عودتها اذ سمعت ثانيا صوتا يقول يازينب أين تذهبى ولماذا لم تدخلى لفراشك

فطرق سمعى جيدا جواب معشوقتى وبحال تذكرى ماوقع منها نظرتها على السطوح فحصل فى قلبى خفقان وضربات زائدة وعزمت على نط السور الفاصل بيننا فلم يمنعنى عنها الا كونى رأيتها أخذت سلما وأدخلناه وتأخرت بسرعة والتفتت نحوى وقالت بنغمة رخيمة الصوت موعدنا باللقاء غدا فى المساء ثم مالت وانثنت وعن عينى اختفت فاضطرم فى جسمى اللهيب من حسن ألفاظها ورقة نغماتها بحالة لم يسبق حصولها الى وكأنى أخاطب بقول القائل

صادتك من بعض القصور * بيض نواعم فى الخدور
حور تحور الى صبا * ك باعين منهن حور
وكأنما بثغورهن جنى الرضاب من الخمور
يصبغن تفاح الخدو * د بماء رمان الصدور

هذا ولم أمل من تكرار ماقالت وأنا أترنم أبياتا نظمها وعدت

وافت وقد رأت العذول بمرصد * فثنت وأومت بالتلاقى فى غد
ياحسنه وعدا ولكن قبله * ليل يطول بلوعة وتسهد

ثم لعبت بى أيدى الغرام وأوردتنى مناهل العشق والهيام وهى تخيل لى ما كان من معشوقتى

سألتها حين زارت نضو برقعها الـــصافى وايداع سمعى أطيب الخبر
فزحزحت شفقا غشى سنى قمر * وساقطت لؤلؤا من خاتم عطر

فلما جن الليل واشتد بي الهيام تبحرت في بحر الغرام وكنت كلما أخوض لجة تزداد النار في فؤادي اضطرام حتى غشي علي ولم أدر بنفسي وسقطت ملقيا على فرشتي وقد أيست من انقطاع نفسي ولم أتيقظ الا في الصباح ففتحت عيني ووجدت أشعة الشمس في وجهي

﴿الفصل الرابع والعشرون﴾

((اختلاء الحاج بابا بمعشوقته زينب اللطيفة ومسامرتها معه عن حالتها وصرف أوقاتها بمنزل الحكيم))

(قال الحاج بابا) فقلت في نفسي بعد مسح عيني من النوم أهكذا أقع في المحبة ولكن صبرا حتى أنظر ماينتج منها وأسألها هذه الليلة عن حالتها وصفتها وكيفية معيشتها واذا وجدتها من جواري الحكيم فخراب بيته ان لم أعلمه كيفية التحفظ على أمتعته أما من جهة الزواج فيستحيل لرجل أن يعرض ابنته أو جاريته لزواجي لاني لحد الآن ليس لي مقدرة لشراء لباسين أستتر بهما وغير ذلك فانه يلزمني على الاقل القيام بمصاريف الفرح ولكن عشمي من الله سبحانه وتعالى حصول ذلك عند اقتداري على جمع بعض دراهم وليس لي الآن الا التحيل بالطرق العشقية التي يلتزم بها الحكيم على دفع المصاريف

ثم قمت من فراشي بهذا العزم ولبست ملابسي بغاية الاعتناء فوق العادة ومشطت ضفائري وصلحتها باحسن وضع وساويت حزامي جيدا ووضعت طربوشي على رأسي مائلا من جهة ولففت فرشتي وحملتها الى قاعة الخدامين وخرجت الى المنزل قاصدا الاستحمام ليزداد رونقي حلاوة وأستعد لاستقبال هذا المساء ومقابلة معشوقتي الحسناء

فتوجهت الحمام وأمضيت فيه أغلب النهار بالغناء والترنم بالاشعار ومشيت

أتسلى فى شوارع المدينة أصرف الاوقات لاقتراب الميعاد وأنا طائش العقل لا ألتفت لشئ

هى شمس النهار فى الحسن الا * انها فضلت بفتك الطراف
غضة بضة رخيم لعوب * وعثة المتن تخنة الاطراف
زانها دلها وثغر نقى * وحديث مرتل غير جاف

ومازلت على هذا الحال حتى انقضى النهار وقل منى الاصطبار ولم أنتظر فقط الا (الشام) أكل المساء وبعده ادعى بالم فى رأسى وأطلب راحتى ولكن من سوء حظى تأخر الحكيم زيادة عن عادته فى خدمة الشاه ولما حضر وانتهى الطعام وتقدم مابقى للخدام وجدت الوقت أزف فزاد مابى من الشغف حيث أخذت الشمس فى الاصفرار والافول وماوصلت السطح وفرشتى تحت ذراعى الا وغابت الشمس وأضاء القمر فطرحتها وفرشتها وجريت وأنا خافق الى الحائط المخروق لانظر معشوقتى فتطلعت منه ولخيبتى التامة لم أر أحدا غيرا كوام الدخان متلخبطة وسلال منتشرة بحالة غير منتظمة يرى منها عدم انتهاء بعض الاشغال فنظرت لزوايا المكان يمينا وشمالا فلم أجد زينب وتنحنحت مرة ومرتين فلم أسمع أحدا الا صوت زوجة الحكيم كان يطرق باآذانى وهى تتسلط بقوتها على احدى الجوارى فى منزلها ومع ارتفاع صوتها للسماء واختراقه الاسوار الا انه ما كان يمكننى الوقوف على سبب غضبها وهيجانها لهذا الحد من شدة لهجتها فى الصياح ثم اقترب صوتها نحوى وخرج من المنور فسمعتها تقول

أتكلمينى عن الشغل يابنت الشيطان ومن أمرك بالتوجه الى الحمام وما الدواعى الموجبة لذهابك الى القبور فاظن انى أنا جاريتك وأنت تفعلى مايشرحك وما السبب لعدم نهو شغلك فاعلمى انك لاتأكلى ولا تشربى ولاتنامى مالم تخلصيه فاذهبى حالا اليه وان أتيت قبل خلاصه فوالله وبالله

والنبي لاضربنك على رجليك حتى تتساقط أظافرك

(قال الحاج بابا) ثم تلا ذلك الصوت الشديد طرد وتهديد وفي الحال لمحت معشوقتي اللطيفة آتية الى مكانها والحزن ظاهر على وجهها وكنت في هذه الدقيقة أيست من مشاهدتها وتهنئتي بحضرتها وقد قام بي من الهيجان ما أوقد بجسمي النيران فانشأ لسان حالي يستعطف خاطرها حيث قال

أزينب لا تصغي لقول المفند * فليس عذول في الغرام برشد
أزينب ان طال التهاجر بيننا * خف الله في قتل المحب المسهد
أزينب ان أضنيت جسمي كأنما * لطول الضنا أغريت بالنوح عودي
أزينب مالي في الصبابة منصف * سوى الوصل ان الوصل منك لمسعدي
أزينب ان القد يبدو كعامل * ولحظك يسطو مثل نصل مجرد
أزينب مهلا ليس بالقلب مسكة * فيقوى على رمح وسيف مهند
أزينب ان لم تسعفي الصب بالمنا * وتوفي فطيري الغداة باسعد
أزينب أفديك بنفسي وأسرتي * وأهلي ولا أرضى طريفي ومتلدي
أزينب مذ قلت الغداة لقاؤنا * فبت وكم حن الفؤاد الى الغد
خليلي ان الصب صعب مرامه * وان بات في وعد وفي غير موعد

وقد تبين لي ان ما أجرته معشوقتي من الحيل والتدبيرات واستمرارها بدون ان تخشى عاقبة أمر مخيف هو بقصد اجتماعنا وان كانت نظرتني الا انها لم تلتفت نحوي لحين انفضاض الصياح الحاصل في بلوك سيدتها

هذا وبعد ان سكن الصياح أومت الي بالحضور فلا يخفى على ذهن المطالع حالتي في هذا الوقت وتلهفي فاني أسرعت لجانبها في أقل من طرفة عين ولم يعلم مقدار ما أدركنا من الفرح والسرور لما نحن فيه من الهيام الا الذين كابدوا العشق وقد ظهر لي من سياق حديث معشوقتي انها ابنة أحد رؤساء

الاكراد استأسر مع عائلته وخدمه ومواشيه وكانت اذذاك حديثة السن لاتدرك شيأ ومن ضمن حكايتها التى ستقصها انها وقعت فى يد الحكيم الذى هى الآن جارية له

ولما هدأ ماجاش من هيامنا واطمأن خاطرنا بلقائنا ابتدأت زينب تذكر ماتم من الكدر الناشئ من سوء معاملة سيدتها لها الآن فقالت

(آه) ألم تسمع ياحاجى مانسبتنى اليه تلك المرأة عديمة الايمان فهكذا معاملتها لى دواما وهى لاتمل من لعنى وتعنيفى حتى أصبحت أقل من الكلب وكل واحدة تهزأبى وتسخر علىّ ولا يقترب منى أحد وقد ذاب كبدى وصار كالماء وآلت روحى تبلغ التراقى ولم أعلم الموجب لنسبتى بابنة الشيطان وأنا كردية ويزيدية وحقيقة أخاف الشيطان وأتوقاه ومن الذى لايخافه الا انى لست ابنته (لان اليزيدية قبيلة من الاكراد ويقال انها تعبد الشيطان) آه واأسفاه لو كنت أقابلها على جبلنا لترى ماذا تفعل البنت الكردية من القوة والشجاعة ثم بكت وأنت واشتكت ولسان حالها يقول

يادهر ويحك كم أطلت تلهفى * وتشوقى للاهل والاوطان
اذ كان فيك أبى زعيم عشيرة * وأشدهم بأسا اليوم طعان
يحمى النزيل نهاره وبليله * مانام غفلا عن قرى الضيفان
واها لعز كان يعهد انه * مالا يصاب بطارق الحدثان
فعدت عليه الحادثات بغزوة * شعثاء ما كانت على الحسبان
ظفر العدو بها وساعده القضا * فاستأصلت بالاهل والاخوان
ياويل قلبى من خطوب فرقت * من شملنا بددا بكل مكان
أودى أبى واستأسرت أمى وقد * حلت بشاسعة من البلدان
وغدوت فى أيدى الذى يستامنى * من بعد عز ذلة بهوان
فعسى الهى ان عن يجمعنا * ماخاب عبد لاذ بالرحمن

فاجتهدت فى تسليتها بقدر امكانى وتلطيف غضبها الحين ما تتمكن من فرصة تنتقم منها بنفسها فاستفحالت حصول هذا الامر كلية لترقبهن الزائد الى جميع أفعالها وسيرها وانها لا تسلك من أودة الى أخرى بدون علم سيدتها ثم قالت زينب ان أصل زواج سيدتى بالحكيم هو ان الملك غضب على احدى الجوارى (وهى سيدتى) فطردها من الحرم الملوكى لسوء سلوكها وأمر انها تتزوج باقل الناس فلم يجدوا غير الحكيم فتأهل بها ولم تدخل له بشئ من النفائس سوى قبح الطبع وجزء عظيم من الكبر تظهر به سلطتها السابقة فى حرم جلالته ولذلك فانها تعتبر زوجها الحالى أقل قيمة من التراب الذى تحت قدميها ومتسلطة بكبرها عليه وهو فى يدها بحالة يرثى لها من الخضوع والذل وانه لا يتجاسر بالجلوس فى حضرتها مالم تؤذنه ولا يكون ذلك الا نادرا بخلاف ما بها من الغيرة الزائدة ولم توجد جارية فى حرمها الا ويداخلها الوسواس من جهتها الشدة غيرتها

ومن وجه آخر فان الحكيم الذى ازداد طمعه واكتفى برفعة شأنه وعلو قدره أصبح عرضة لاوهان الطبيعة البشرية وبذا صار لا حظ له ولا احساس لميل طبيعته لمشاهدة محاسن وقدود جواريه الحورية وقد أخبرتنى زينب نفسها انها كانت فى أوائل الامر مطمح انظاره وافكاره الوحيدة وبذلك لا تسمح له روجته من شدة غيرتها بالنظر أو الاشارة اليها بشئ ولو بمجرد الايماء بخلاف ما هو حاصل من التجسس الكلى فى الحرم عند توجه زوجة الحكيم الى الحمام أو الجامع فانها تحترس جدا بان توزع الجوارى على الاشغال كما تقتضيه الظروف والاحوال مثل ما يصير تجهيز استعدادات لاعمال فرح ونياط كل منهن بأمر

(قال الحاج بابا) ولكونى لم أر مطلقا مصالح داخلية مثل هذه أكثر مما رأيت منذ صغرى فى منزلنا لحد الآن فاخذنى العجب من ذلك والذى

ادهشى

أدهشني زيادة هو ما سمعته من ضمن تاريخ حياة زينب اللطيفة في منزل الحكيم وهو

(قالت زينب) اننا خمسة جواري بخلاف سيدتنا داخل الحرم وهن شيرين (أي الجميلة) الجارية الجرجانية والشابة نورجهان (أي نور الدنيا) الجارية الحبشية وفاطمة الطباخة وليلى العجوز القهرمانة أما وظيفتي فهي بصفة خادمة أمام الخانم (وبذلك تسمى سيدتي لان معتبري العجم يلقبون زوجاتهم بهذا الاسم) ومما يجب على أداؤه التفاتي لشبكها ومناولتها القهوة وادخال الطعام وتوجهي معها الحمام وتلبيسها وتقليعها ومسح ملابسها وتصليحها وفرك التبغ ووقوفي امامها

أما (شيرين) الجرجانية فهي بصفة صندوقدار (حافظة المنزل أو خزندارية) ومن خصائصها التفاتها لملابس سيدي وسيدتي بل وملابس عموم الحرم أيضا وملاحظة المصاريف وتخزين غلال المنزل وما يلزم من المؤنة وفي عهدتها الصيني والفضة والاواني وبالاختصار فانها مختصة بكل أمر سواء كان ذاتيه أو من متعلقات العائلة

أما (نورجهان) فهي لوانجية (فراشة) وعليها تنظيف الاوساخ وفرش السجاجيد وكنس الاود ورش الحوش ومساعدة الطباخة وتحمل البقج والرسائل وانها معدة لمساعدة كل من يدعوها

وأما (ليلى) العجوز فهي بصفة كيخية (رئيسة) على جميع الجواري ومصلحتها خارج المنزل فانها تقوم بقضاء المهمات الصغيرة التي تلزم للخانم من عائلات المنازل الاخر والمظنون فيها انها جاسوسة على أحوال الحكيم وسلوكه في الحرم وهكذا تنقضي علينا أيامنا بالمجادلات والمشاجرات المكدرة وانه في بعض الاحيان يتحد جاريتان منا مع بعضهما ويتفقا غاية الاتفاق بالمحبة المتينة على مضادة رفقائهما بقصد طردهن وحرمانهن

من التفات سيدتهن

والآن حاصل بيني و بين الجارية الجرجانية شقاق عظيم وسبب ذلك انه لما تمادى عليها الزمن ورأت ان أيامها انقضت عليها بالشؤم وعدم القبول عند سيدتها عملت كل حيلة للحصول على حجاب محبة من أحد الدراويش وبعد استحواذها عليه في أسرع مدة لم يتم ثاني يوم الا والخانم أهدتها بصلطة وقد أوجب هذا الامر عندي غيرة شديدة حتى بذلت ما في وسعي للاتفاق مع الدرويش بان يكتب لي حجابا يسبب لي زوجا صالحا وفي مساء ذلك اليوم الذي أحضره لي الدرويش نظرتك على السطح فاستبشرت بتحسين حالتي وقد وقعت مسئلة أسست بيني و بين شيرين المنافسة وكانت عاقبتها البغضة والعداوة وأصبحنا الآن من أشد الاعداء نتمنى موت بعضنا بعضا انما يحتمل في زمن مستقبل العودة للمحبة ثانيا في لحظة واني الآن في غاية المحبة الثابتة مع نورجهان وبالنسبة لاغراني لها فهي جارية القاء الفتن والدسائس للخانم واخبارها بوقائع قبيحة ضد عدوتي المذكورة

أما السبب الناشئ عنه هذه العداوة هو انه تصادف في احدى الايام اعمال بعض حلويات وفطورات في السراية الملوكية ولندرة صناعتها أرسلت احدى حرم الشاه جزأ منها هدية لسيدتنا فامرتنا بالحفظ عليها فتسلطت عليها الفيران وأكلت منها قسما كبيرا ولما سئلنا عن ذلك نسبنا الاهمال والذنب الى الجرجانية فغضبت سيدتنا لهذا الامر واغتاظت منها وأمرت سيدتنا نورجهان بضربها فالقوها الجواري على الارض وقامت نورجهان بامر سيدتها

وأما أنا فكسرت كاس الشرب تعلق سيدتي وكان عزيزا عندها فاصدقت ان رأت شيرين ذلك الا وأبلغت سيدتها وأرتها اني أنا المتسببة في كسره فالزمتني بشراء كاس غيره واني أعلم انها ما زالت للآن تلقي الفتن وتدس

الدسائس ضدى نظرا لتقربها من ليلى وصحبتها معها لكونها محبوبة عند سيدتنا فى هذه الايام ولذا فانى فى غاية الاحتراس من عدم أكل وشرب شئ من يدها خوفا من السم وهى تقابلنى أيضا بمثل ذلك ولم تبلغ درجة التسمم هنا فقط لا بل فان عموم العائلات الاخر يتخذون الاحتياطات عند حصول ما يماثل هذا الامر بينهم

وأيضا قد وصلت المسئلة من مدة أيام لضرب بعضنا بالكفوف لانها فورت غضبى وهيجتنى ببصقها على وقولها لى (لعنت بى شيطان) اللعنة على الشيطان تريد بذلك اهانتى ولا يخفاك يا حاجى ان هذه أعظم مسبة لليزيدية فاشتد لذلك غضبى وطار عقلى وهجمت عليها ودعوتها باقبح الاسماء التى تعلمتها باللغة الفارسية ولويت شعرها على يدى وجذبته فقلعته من جذوره ولم يفرق بيننا الا (ليلى) التى كان لها نصيب من المسبة بعد ان استمر بنا نلعن ونسخر بعضنا مدة طويلة حتى يبست أزوارنا من شدة الغضب والصراخ وكدنا نقطع النفس وقد هدأ روعنا وشفى غليلنا لحد الآن بهذه المشاجرة ولكن كراهتها الى الآن لم تنقص لانها مازالت تظهر سلطتها فى النميمة ضدى فى أى وقت تتمكن من القائها النمائم بواسطة صاحبتها ليلى

(قال الحاج بابا) ومازالت زينب تتسامر معى بهذه الحالة بقصد تسليتى حتى لاح الفجر الاول وسمعنا المؤذن يؤذن فى الجامع لاجتماع المصلين فاستحسنا مفارقة بعضنا خوفا من كشف سترنا بعد ان تواعدنا بالمقابلة فى أى وقت يسمح لنا بذلك واتفقت معى انها عندما تجد وقتا بواسطة تدبيراتها التتمكن فيه من اجتماعنا ثانيا فتعلق برقعها على فرع شجرة فى الحوش أتمكن من نظره من السطح وان لم أجده فيكون ذلك دليلا على عدم المقابلة تلك الليلة وافترقنا بهذا الشرط

﴿الفصل الخامس والعشرون﴾

﴿اجتماع العاشقين ثانيا وما حصل لهما من الانبساط وانشاد الحاج بابا الاشعار﴾

(قال الحاج بابا) فطلعت فى مساء الغد على السطح مؤملا رؤية ما بيننا من الاشارات التى اتفقنا عليها ولكن تأسفت جدا لعدم رؤية البرقع معلقا على الشجرة فجلست على الارض قاطع اليأس ولم أر الدخان وآلات التنظيف فى محلها ووجدت البيت ساكنا ليس به صوت آدمى لا ولا صوت زوجة الحكيم الذى لا ينقطع مطلقا فكنت فى هذا الوقت أترقب سماعه حيث تهيأ لى انه أطرب والذ صوت موافق على وجه الارض لتلذذى بسماعه وان الطبيعة البشرية فى حاجة اليه وأيضا رنة النعال التى لا أشك فيها انها ناشئة من دبيب ليلى العجوز اذ انها علامة على وجود أحد بالمنزل

ومازلت على هذه الحالة حتى طرق آذانى بالتعاقب صوت موسيقة الملك على بعد وضرب الطبول وقعقعة الترميبطات وكان كل ذلك دلالة على غروب الشمس وبعدها سمعت جملة مؤذنين مختلفة يدعون المصلين لصلاة المغرب هذا ومعظم افكارى متجهة للوقوف على خبر معشوقتى

واستمريت منتظرا حتى سمعت أيضا طبل الضابطة تأمر الناس بقفل دكاكينهم وتوجههم لمنازلهم وكذلك كنت أسمع مناداة الدورية التى تخفر الملك على أسوار السراية من مسافات بعيدة وقد جن الليل واحتبك الظلام ومع كل فان منزل الحكيم فى غاية السكون ولم أشعر بدبيب أحد فيه فقلت فى نفسى ياترى ما الداعى لذلك كله فلو فرض وتوجهوا الحمام فانهم لا يتأخرون لهذا الوقت ومع ذلك فان حمامات النساء لا تفتح الا فى الصباح فقط انما لابد وانهم جاريين اعادة مريض أو توجهوا فى عرس أو ولادة أو ربما توجهوا

المدفن أو يحتمل ان الحكيم أتت له داهية وبينما أنا على هذه الحالة وقد قتلت نفسي من الافكار اذ سمعت الباب يطرق بقوة على حين غفلة وبمجرد فتحه قعقعت الشباشب وعلت أصوات جملة نساء مختلفة ومن ضمنها صوت الخانم المشهور يدمدم ويهمهم عليهن كالصاعقة وكان بينهن جملة فوانيس من الامام والخلف وقد أظهر لي نورها هيئة النساء حتى انه بحال رفع براقعهن من فوق وجوههن تحققت من مشاهدة زينب معشوقتي

فقلت في نفسي لابد من الانتظار لعلي أحظى وأتبارك بمؤانستها قليلا حتى ظهرت بقوامها المياس وساررتني بكل احتراس بقولها ان دواعي الاحوال تمنعنا عن المجانسة في هذا الوقت ولا يمكنها التأخير وانها تجتهد في تدبير حيلة للاجتماع في وقت آخر ثم أخبرتني بغاية الايجاز ان أسباب خروجهن هو أن سيدتها أتاها خبر أختها وهي احدى الستات الموجودات في سراية الشاه انها فاجأها المرض وقضى نحبها الساعتها والمظنون ان موتها تسبب عن تعاطي السم بواسطة أحد أعدائها وانها أخذت جميع جواريها صحبتها لكي ان تزيد بهن نغمة الحزن الذي تعودوا على اجرائه في مثل هذه الاحوال وتوجهن وقت الظهر وصرن يصحن ويصوتن بقوة وقد امتلأ الجو بصياحهن وكاد أن يخرق الهواء من ضجيجهن ومازلن على هذه الحالة حتى اخشنت وبحت أصواتهن وان سيدتها مزقت ملابسها تريد بذلك أداء فروض التعبة للعزاء وانها لما تأملت في الفستان الذي عليها انه ذو قيمة عظيمة أمرت بشق طقتين أو ثلاثة منه وبما ان تشييع الجنازة سيكون في ثاني يوم فضروري من وجودهن من صباح باكر هنالك للاستمرار في اقامة الحزنه ثم قالت زينب على قبول المزاح ان سيدتي ستأخذ مكافأة لها على هذه المصلحة منديلا اسود وتأكل الحلوى وعلى ذلك انصرفت معشوقتي بعد ان وعدتني انها ستبذل غاية جهدها في ايجاد

فرصة المقابلة فى مساء الغد وتبهتنى بالالتفات للاشارة المعلومة
ولما أصبح الصباح وقمت من فراشى وأنا شاخص لجهة معشوقتى فاندهشت جدا الرؤية الاشارة فى هذا الوقت ثم لمحت زينب تشير لى بالذهاب لصوبها فما صدقت ان أسرعت بالنزول من السطح كالطائر اليها من السلم التى كانت تستعمله للطلوع عليه ووجدت نفسى فى لمحة واحدة واقفا فى وسط الحرم فلما أفقت من سكرتى هذه ورأيت نفسى انى فى مكان لا يسمح لاى انسان مهما بلغ فى الوقاحة أن يصل اليه تلبسنى الخوف والانزعاج الشديد ولكن بالنسبة لما كانت تسكن به روعى معشوقتى وتطمن خاطرى بحسن لطافتها ورقة ألفاظها قويت نفسى وتبعتها
ثم قالت تفضل يا حاجى ودع عنك الخوف والجزع فلا أحد هنا خلاف زينب معشوقتك وان أسعد زماننا فقتنا تأنس يومنا باجتماعنا فى غياب عوازلنا فاجبتها وقد أخذ العجب منى كل مأخذ كيف فعلت ذلك وهل يتأتى منك لهذا الحد فاين الخادم وأين النساء وان لم يكن هنا فكيف الفرار من مخالب الحكيم
فقالت زينب مكررة لا تخف يا حاجى فانى أغلقت جميع الابواب ولو تصادف وحضر أحد فالوقت كاف جدا للهروب قبل الفتح لهن فلا تخش أمرا من هذا القبيل لان جميع النساء توجهن للجنازة واما من جهة ميرزا أحمق فان سيدتى فى أمان من عدم حضوره فى مثل هذه الاحوال بالنسبة للاحتياطات الكلية التى تجريها نحوه ولكونى الآن بالمنزل بمفردى فلا يتجاسر أن يقترب من منزله على بعد فرسخ
ولتعلم يا حاجى بما أراه فيك من الاندهاش العظيم المتلبس بكل جسمك ان جميع ماقدر علينا لابد من انفاذه عما قليل وان أول ساعة رأينا بعضنا فيها لاسعد الساعات حيث من بعدها جميع الامور متيسرة لنا وكل ما نطلبه

بجده

بجده سهلا والسبب فى ذلك هو ان الجارية الجرجانية عدوتى أدخلت فى فهم الخانم مسئلة تخصنى اذقالت لها لما أرادت التوجه للجنازة بما أن ليلى معدة من النواحين المستعدين فى المحازن وانها تعلمت هذا الفن بجميع فروعه منذ صباها فلا يستغنى الحال مطلقا لوجود هذه المرأة فى مثل هذا الوقت ولذا فلها الافضلية فى التوجه بدلا عنى (زينب) بما انى كردية ولا أعرف الا قليلا من عوائد العجم وانها لم تفعل ذلك الا لكراهتى وقصد حرمانى من المنديل الاسود ومنافع أخرى وعلى ذلك تركونى فى المنزل بمفردى وتوجه جميعهن لمنزل المتوفية ومع ما كنت أدعيه من الغضب ومقاومة ليلى فى توجهها بدلا عنى بجدة ظاهرية حمدت الله لاجتماعنا سوية فلنغتنم الآن لذة وقتنا هذا بالانس والانشراح

(قال الحاج بابا) ثم انها توجهت الى المطبخ لتجهيز صينية طعام لفطورى وتركتنى أمتع نظرى وأسلى نفسى بما خفى داخل الحرم عن العزاب مثلى فدخلت أولا الى بلوكات الخانم المخصوصية فوجدتها مطلة على بستان وبها شباك عريض متسع بدرف من الزجاج الملون وباحدى زواياه مخدع معد لجلوسها وعليه سجادة ثمينة مطبوقة نصفين وباسفله وسادة لراحة رجليها مكسية بالجوخ المطرز بالقصب وفى كلا طرفيها ازر من السجق الغالى ومغطاة بغطاء من الشاش وبجانب المخدع مرآة لطيفة مدهونة بالبوية الجميلة وصندوق مشتمل على جميع أنواع العجائب وبه زجاجات العطرة وآلاتها الصغيرة وألوان مختلفة من الصينى وزوج علاقات مربوط بهما التمائم وبه من أنواع الزينة ما يلصق بالشعر ويعلق على الجبهة وأيضا سكاكين ومقصات وأشياء أخرى وبالقرب من المخدع وتر وطنبورة وأمام انب نومها موضوعة مطبقة فى ركن آخر أبعد من هذا وملفوفة بغطاء من قماش أزرق وأبيض ثم رأيت جملة رسومات بدون براويز معلقة على الحائط وباعلى

سور المكان رف مزدحم بانواع الزجاج والطشوت وخلافها وعثرت فى ركن آخر على جملة زجاجات من نبيذ شيراز ومن ضمنها زجاجة مغطاة بزهرة يرى ان الخانم شربت منها هذا الصباح لتنعش جسمها وتقوى نفسها المدة الذى تمكثها فى الحزنة

(فقلت فى نفسى) ان النبى عليه السلام لم يراع كثيرا فى هذا المنزل ولكن ذلك مما يجعلنى مرة أخرى أعرف قيمة ما يدعون به رياء امام الناس من الطهارة وثبات الايمان وان حكمنا مع ما نظهره من التقوى الاسلامية واعطاء الجرع والشراب فى الخارج يستعمل بدل ذلك الكمية الوافرة من النبيذ فى منزله

وبحال ما انتهيت من الفرجة على هذا المحل وما فيه من العجائب التى أدهشتنى وعلى محلات الخدم أيضا كانت زينب جهزت الفطور فى أودة الخانم فجلسنا على المائدة قبال بعضنا واتكات على المخدة السابقة الذكر ولم أجد فى عمرى ألذ من هذا الطعام طعما وصناعة حيث يحتوى على صحن من الارز المفلفل الابيض بلون الثلج وبجانبه صحن من اللحمة المشوية مقطعة قطعا صغيرة وموضوعة داخل شقة كبيرة من الخبز ثم وبطيخة أصبهانية مشقوقة قطعا مستطيلة وبعض من الكمثرى والمشمش وأيضا عجة مسخنة يظهر انها من بقايا طعام وجبنة وبصل وكراث وزبدية من اللبن الحامض وصنفين مختلفين من الشراب وزيادة على ذلك بعض الحلوى وصحن مملوء من العسل الجديد

فلما رأيتها جالسة امامى كالبدر فى ليلة أربعة عشر زاد هيامى وتوقدت نيرانى فابتدرتها بالتحية والتهانى بما عناه لسان حالى

أهلا وسهلا بالحبيب ومرحبا * فلقد وفالى بالوعود وأطربا
أحيا فؤادا كاد يتلفه الاسى * مذ بات فى أيدى الغرام معذبا

لولا الصبا من نحو زينب كان ينـ * ـعشه لاودى طائعا ولولا الصبا

فاستبشري يا عين بالقيا ويا * قلبي تهنأ فالحبيب تقربا

فاعجبها كلامي وشكرتني على نظامي ثم صحت وانا أبرم في شواربي بعدان تأملت في الاصناف اللطيفة التي امامي قائلا ﴿وحياة املك يا زينب﴾ اني لفي غاية العجب من سرعة توضيبك هذا الطعام كله في أقرب وقت وان هذا لفطور يحق تقديمه للشاه فقالت زينب

(آه يا حاجي) أما من جهة هذا فلا تتعب أفكارك بل امد يدك وتناول منه قدر طاقتك فان السبب في السرعة هو ان سيدتي أمرت بتحضير الفطور قبل دخول الليل ثم عاودت أفكارها هذا الصباح بالاكل في منزل المتوفيه وتركته لي وماذلك بكثير اليك فلنأكل فقد طاب الوقت بالانس والانشراح

(قال الحاج بابا) فأكلنا ونحن مسرورون وفرحون ونحن نتسامر بلذيذ الحديث من قديم وحديث وتركنا جزأ يسيرا منه على حسب العادة احتراما للمائدة وربما يأتي أحد من بعدنا بريد الاكل وبعد ان غسلنا أيدينا وضعنا النبيذ امامنا وخلعنا العذار وكشفنا عن الهوى الاستار ونحن نهنى بعضنا باجتماعنا حيث وجدنا انفسنا في خلوة بعيدة عن فكر الرقيب ومتمتعين باعظم لذة ونقول اننا الآن أسعد الناس على وجه الارض ثم انها مدت يدها الى طبق الفاكهة وناولتني تفاحة فاخذتها وقبلتها ووضعتها أمامي وعدت للعود وصلحته وغنيت

فديت من حبا بتفاحة * كأنها في اللون من وجنته

نسيمها يخبرني انها * تسترق الانفاس من نكهته

لما حكت نوعين من وصفه * قبلتها شوقا الى رؤيته

فاعجبها كلامي وأخذت سكينا وشطرتها نصفين ووضعت منها قطعة في فمي

فأكلتها وغنيت هذين البيتين

أعطت يداه محبه تفاحة * تعطي المحب امانه من صده
فعلت حين لثمتها من كفه * اني سألثم مثلها في خده

فقالت لقد أجدت في المقال وأحييت قلبا أبراه السقام ثم أشارت الى الكمثرى وقالت بم تصف هذا القوام فقلت

وكمثرى تراه حين يبدو * على الاغصان مخضر الثياب
كثدي مليحة أبدته تيها * له طعم ألذ من الشراب

فمالت عجبا وانثنت طربا وأخذت سفرجلة من الطبق وقطعتها كالحلق وناولتني قطعة وقالت كيف تجد هذا المذاق أيها العاشق المشتاق فقلت

حاز السفرجل أوصاف الورى فغدا * على الفواكه بالتفضيل مشكورا
كالراح طعما ونشر المسك رائحة * والتبر لونا وشكل البدر تدويرا

فقامت واعتنقتني ومالت علي وقبلتني وقالت لقد شفيت الفؤاد بعد ان أحرمتني طيب الرقاد ولم يبق عندنا غير المشمش فهل لك من واحدة فانه للقلب منعش فقبلتها وقبلتها وقلت

ومشمش جاءنا من أعجب العجب * أشهى الي من اللذات والطرب
كأنه وهبوب الريح تنثره * بنادق خرطت من خالص الذهب

ثم انها ملأت كاسا من النبيذ وناولته لي فشربته وأعقبته بالثاني والثالث حتى تخيلت أمامي انها من الحور فاخذت العود وغنيت هذين البيتين

وكردي اللحاظ تروم قتلي * عقارب صدغه فاقول روحي
ومن شغفي بحسن القد منه * أغار على الغصون من النسيم

فملأت كاسا رابعا وأرادت تناولني اياه فاقسمت عليها بشربه وملأت لها آخر فشربته فزاد خداها في الاحمرار ومن شدة انبساطها أخذت العود

وضربت عليه جملة أدوار ثم قالت زدنى سرورا بما عندك من لطائف الاشعار فان هذا ما يولد الافراح ويطيب به شرب الراح فاخذته منها واصلحته وغنيت هذه الابيات

أدم يارب خلواتى بحبى * لاقضى بالتواصل منه دينى
ولا تجعل هناك سوى لسانى * سفيرا بين أحبابى وبينى
وان قدرت انسانا يرانا * بحقك فليكن انسان عينى

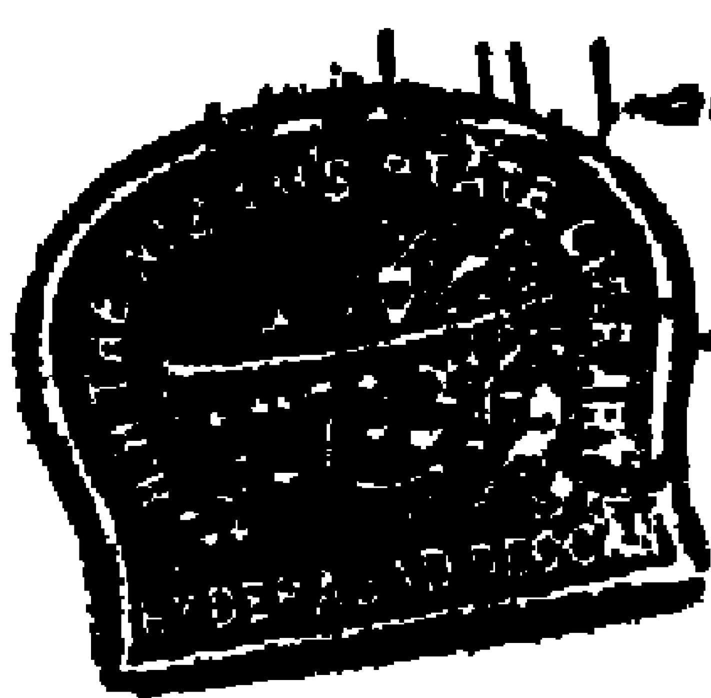
فقالت لا تخف أيها الحبيب فليس هنا من رقيب فعند ذلك اشتد بى الفرح والسرور ولعبت بعقلى الخمور وعدت للعود بعد ان وضعته جانبى ونسيت محذورات مستقبلى واصلحت أوتاره وغنيت أبياتا من كلام الحافظ تعلمتها فى صغرى وكنت اغنى بها فى الحمام لاطرب بها من يسمعنى وهى شبيهة بقول محمد بن العفيف حيث قال

سهر العيون يلذ للمشتاق * والسقم خير ملابس العشاق
فاختر سهادك فى الهوى عوض الكرى
واختر فناك فى جمال الباقى
وصل المدامة والنديم ومنزل الـشهانات واخضع ساجدا للساقى
واسكن جنان الخلد بالنار التى * لم ترم غير الهم بالاحراق
صهباء ترمى من جفون حبابها * من غير ما هدب ولا آماق
يسعى بها لدن القوام مهفهف * كالغصن ماس مرونق الاوراق
أحداقه ملئت من الاقداح أم * أقداحه ملئت من الاحداق

فما انتهيت من غنائى الا وانطربت ومالت وانثنت وغشى عليها فلما أفاقت قالت انها لم ترسرورا ولا لذة مدة حياتها أحسن من هذه الساعة وانها نسيت ان كلا منا أقل الناس ذلا واحتقارا وانها جارية فى الاسر وأنا أحوج جميع أهل العصر ومازلنا على تلك الحالة والخمر يلعب بعقولنا حتى تهيأ لنا

ان جميع الادوات التى حولنا هى ملك لنا والجرو عشقنا لا ينقضيان مدى الدهر هذا و بعد ان غنيت جملة أدوار ونحن نملاء كاسا بعد كاس حتى افرغنا الزجاجة وجدت الوقت فسيحا فتشوقت لسماع تاريخها فقلت لها ((يا زينب)) لقد وعدتينى من مدة ان تحدثينى بتاريخك وما جرى لك وأسباب أسرك وطلوعك من بلدك لحد الآن لانى أرى ان هذا الوقت أسعد الاوقات وفيه تستحب المسامرات سيما ما حصل لك من الخاطرات بما ان اجتماعنا بالليل غير معلوم بالتحقيق فاجابت طلبى بغاية البشاشة وهى مسرورة الخاطر وقالت ان رحلتى عجيبة وحكايتى غريبة وما فيها من المخاطرات والمشاق تدعى الناس لسماعها بكل اشتياق فالق الى آذانك واسمع يا حاجى بابا تاريخى الذى لم يطرق مثله لاسماعك

((انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله الفصل الـ... والعشرون فى تاريخ زينب الجارية الكر...



((التفات))

من أراد الحصول على الجزء الثانى فعليه أن يدفع خمسة غروش البنا وذلك للمشترك وسبعة غروش لغير المشترك لغاية صفر سنة ١٣٠٩ ومن رغب الجزءين معا فليدفع عشرة غروش و بعد هذا الميعاد يكون ثمن الجزء الثانى عشرة غروش لعظم حجمه عن الاول

هذا وأرجو من اولى الالباب أن يغضوا النظر عما يروه من الهفوات فانى مازلت مقرا بالعجز والتقصير وأسأل الله أن يرد غيظ القادح فى نحره ويكفينى مقالة حضرة صاحب نهاية الارب فى شعر العرب حيث افتتحها بالرد على القادح وقال ملخصا

قادحيك معاصريك لطفى